موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية

(٤٦)

الفطرة

الباحث الرئيسي ورئيس الفريق العلمي
أ.د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك

www.mtenback.com

دار رواح للنشر والتوزيع

ح مرزوق بن صنيتان بن تنباك ، ١٤٢١ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية/مرزوق بن صنيتان بن تنباك ... [أخ]. الرياض.

٥٢ ج؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك : ٤-١٨٥-٣٨-٩٩٦٠ (مجموعة)

١-٢٣١-٣٨-٩٩٦٠ (ج ٤٦)

١- الأدب العربي – موسوعات أ- ابن تنباك ، مرزوق بن صنيتان (م . مشارك)

ديوي ٨١٠,٣ ٢١/٢٠٧٨

رقم الإيداع : ٢١/٢٠٧٨

ردمك : ٤-١٨٥-٣٨-٩٩٦٠ (مجموعة)

١-٢٣١-٣٨-٩٩٦٠ (ج ٤٦)

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس المحتويات

الموضـــوع	الصفحة
توطئة	٥
الفطرة لغةً	٧
الفطرة اصطلاحًا	٨
تكوين الفطرة	٩
الفطرة والجمال	١٧
الإسلام دين الفطرة	٢٠
الانحراف عن الفطرة	٣٧
الفطرة والبيئة	٤٢
الحضارة الحديثة والفطرة	٤٤
الفطرة والعادة	٥٣
الفهارس	٥٩

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فَإِذَا رُزِقْتَ خَلِيقَةً مَحْمُودَةً فَقَدِ اصْطَفَاكَ مُقَسِّمُ الأَرْزَاقِ

فَالنَّاسُ هَذَا حَظُّهُ مَالٌ وَذَا عِلْمٌ وَذَاكَ مَكَارِمُ الأَخْلَاقِ

حَافِظ إِبْرَاهِيم

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

توطئة:

يكثر الحديث عن الفطرة كلما أُريد الكلام على ضرورة المحافظة على نقاء الإنسان الداخلي وصفاء نفسه.

فالإنسان بفطرته مجهّز بنوازع الخير محبّ لها، تتجاذبه دون ذلك شهواتٌ وأهواءُ تخالف ما استقر بالفطرة أنه خير وحق.

وقد أدرك الإنسان بفطرته الخير والشرّ، وميز بين الصحيح والباطل، لذلك مالت نفسه إلى الخيرية ونفرت من فعل السوء، كما وصفه خالقه بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾[1].

وهذا من فضل الله على الإنسان إذ جعله مهيئًا للصلاح والقيام بما ينفع معاشه ويصله بإخوانه من البشر، ليبني مجتمعًا يطمح لنشر السعادة والتآخي في هذا الكون الواسع، ويعيش على سلامة الفطرة ونقاء الطبيعة حتى تخيم عليه المحبة والطمأنينة. ويغلب الخير في المجتمع وينحسر الشرّ. مع تحصينه بالتربية والتعليم الذي يصقل فطرة الإنسان وينمي بواعث الخير في نفسه فتزكو طبيعته وتقوم حياته على مبدأ الحق والرضا وحب الخير وسلامة الطوية ونقاء السريرة من الأوضار الاجتماعية الضارة. والحيلولة دون نمو الجوانب السلبية في التكوين البشري وتقزيمها في النفوس، وتحجيم انطلاقها إلى الفضاء الإنساني الواسع حتى يكون ميزان الصراع المحتوم في الحياة يميل إلى صالح الفضيلة والحق والعدل.

وإذا لم ترع الفطرة السليمة دمر منبع الالتزام الأخلاقي وصار حب الأذى وفعل السوء طبعًا في النفوس وأصبح السلوك الشائن عادة مألوفة، فلا يبقى بعد ذلك في الإنسان خير أو صلاح.

---

[1] سورة الحجرات: الآية ٧.

www.mtenback.com

واليوم تتصارع قوى الشر وقوى الخير، فتحاول الأولى الوصول إلى مكمن الصفاء البشري المطبوع على الفطرة النقيّة وتدنيسه، مستهدفة زرع الغواية والضلال بحجة تلبية الحاجات الفطرية، والتمتع باللذائذ الزائفة. ومعنى ذلك تنحية الفطرة عن وظيفتها الصحيحة السليمة ونبذ مبادئ الأخلاق الفاضلة.

ولا شك أن الترف المادي ودواعي الاستمتاع بملذات الدنيا من شأنها أن تضرب حجابًا على جوهر الإنسان وتنأى به عن فطرته إلا أن تكون الحماية الذاتية والقناعة الفكرية أقوى من المغريات والبواعث.

ومن هنا كانت مسؤوليتنا كبيرة وواجبنا عظيمًا، في التأكيد على أصالة الفطرة الإنسانية النقية، والدعوة إلى ما يحفظها سويّة صافية، لا تحركها نوازع الهوى، ولا تفسدها ميول النفس الأمارة بالسوء، بل يكون العقل هو الموجّه الحقيقي للسلوك المنسجم مع ما يريده الله من عباده من الالتزام بما اختاره لهم، وشرعه بينهم، وما يحقق الصلاح.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الفطرة لغة:

لتعريف الفطرة عدة معانٍ تدلّ عليها، وهي من: فَطَرَ الشيء يَفْطُرُه فَطْرًا. وأصل الفَطْر الشقّ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾[٢]. والفِطْرَة: الابتداء والاختراع، فقولهم: أنا أول مَنْ فطر هذا البئر يعني أول من بدأ حفرها. والفِطْرَة: ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به، ومنه قوله تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾[٣]. والفطرة: السنّة التي يُقتدى بها[٤].

والفطرة ابتداء الخلق كما في الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة»[٥]، والمعنى أنه يولد على نوع من الجبلة والطبع المتهيىء لقبول ما يكيف عليه.

وأكثر ما يقصد بالفطرة هو ما جبلت عليه الأشياء الظاهرة والباطنة التي هي من مقتضيات الإنسانية، ويعد الخروج عنها، أو الاخلال بها خروجًا عن الإنسانية أو إخلالاً بها. إذن هي مركب التكوين الأول الذي ارتسمت عليه في الأصل صورة الإنسان والوجود كله وهي الجوهر الحقيقي لطبائع الإنسان والأشياء والموجودات الكونية.

---

[٢] سورة الانفطار: الآية ١.

[٣] سورة الروم: الآية٣٠.

[٤] انظر: ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرّم: لسان العرب، المطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية (١٣٠٠هـ)، ج٦، انظر الصفحات ٣١٦-٣٦٦. وانظر: الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسني: تاج العروس، تحقيق: د. حسين نصار، راجعه: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، سلسلة التراث العربي، طبعة (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)، ج١٣، انظر الصفحات ٣٢٥-٣٣٢.

[٥] البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، مطابع الوزير، القاهرة، (١٣٧٨هـ)، ج٣، ص١٧٦.

www.mtenback.com

الفطرة اصطلاحًا:

يمكن القول بأن الفطرة الإنسانية في أحسن حالاتها هي تطابق الإنسان مع كينونته[٦]. وهذا التطابق يعد جزءًا من فطرة الوجود كله، وهي محكومة بالناموس نفسه الذي يجعل الوجود كله وحدة متناسقة متكاملة[٧].

والفطرة تكون مقومًا أصيلاً من مقومات الإنسان والحياة منذ أن خلق الله الحياة والإنسان، وهي مركبة في أصل الوجود. فما وافق العقل والمنطق وطبيعة الحياة، وما رضي له طبع الإنسان عدَّ من الفطرة وما نفر منه الطبع والتوت به السبل وكرهه الناس أو رفضوه عدَّ من غير الفطرة ولا يختلف الأخلاقيون والمفكرون على سواسية الفطرة وقبولها للطيب ورفضها للمكروه والممنوع والمحرم.

والإنسان مفطور في أصله على أشياء كثيرة، فهو مفطور على حب الحياة والتعلق بالبقاء، و مفطور على الدين، لإحساسه بحاجته الدائمة إلى قوة تحميه، وهو مفطور على حب الوطن والأرض التي ولد بها ونشأ فيها، وهو مفطور على الميل إلى الجنس الآخر، فالذكر يميل بطبعه إلى الأنثى، والأنثى بطبعها تميل إلى الذّكرَ، وهو مفطور على حبّ المال والولد لأنهما زينة الحياة الدنيا، ومفطور على صَوْن نفسه ورعايتها والسعي في صالحها، ومفطور على حب الاختلاط ببني جنسه ومعاشرتهم، لأنه «مدني بطبعه» وهكذا فالفطرة تعبيرٌ عن الكمال الإنساني كما هو في أصله، وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ ليلة أسري به أتي بإناءين في أحدهما لبن، وفي الآخر خمْر، فقيل: اشرب أيهما شئت، فأخذ اللبن فشربه، فقيل: «أصبت أصاب الله بك، لا تزال أمتك على الفطرة»[٨].

---

[٦] انظر: سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ط١، (١٩٦٢م)، ص ١٢٧.

[٧] انظر سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق ط١٢، (١٩٨٦م/١٤٠٦هـ)، م٣، ج٩.

[٨] صحيح البخاري ٦/٤٢٨-٤٧٦، وصحيح مسلم ١/١٤٤.

www.mtenback.com

تكوين الفطرة:

ويدخل في حدّ الفطرة ما يُعرف عن حياة العرب قديمًا قبل الإسلام من أنهم عاشوا عيشة بدوية اعتمدت على الرعي والصيد وقد آثروها على غيرها لما تتميز به حياتهم من حرية وانطلاق يلامس الفطرة ويلبيها ويستجيب لها.

كما يدخل في مجال «الفطرة» نَظْمُ العرب قديمًا الشعر بالسليقة والطبع لأن الشعر العربي بدأ بداية فطرية ملهمة على شكل جمل مُقَفَّاة ذات سجع أو إيقاع يشبه السجع، وتعبير عن إحساس، ثم تفنن الشعراء فيه وزيدت أنغامه أي بحوره، وأغلبها من الأنغام السهلة المتناسبة مع الفطرة العربية والحياة الأولية عندهم، ثم تطور بتطور الحياة العربية وأصبح له تقاليده وأساليبه الفنية المركبة[٩].

ويدخل في باب «الفطرة» ما كان يجري على ألسنة العرب في الجاهلية من ضروب التفكير في حقائق الحياة والموت، وما كان يجري على ألسنتهم أيضًا من الحكم والأمثال المتنوعة المقتبسة من حقائق مجتمعهم ومعاشهم، ومعلوم أن ما شاع على ألسنتهم من تلك الألوان لم يكن فيه فلسفة، ولكنها البساطة والفطرة، وإن عكس أحيانًا حنكتهم وتجاربهم في الحياة، كقول شاعرهم[١٠]:

أَرَى العَيْشَ كَنْزًا نَاقِصًا كُلَّ لَيْلَةٍ وَمَا تَنْقُصُ الأَيّامُ وَالدَّهْرُ يَنْفَدِ

فهذا معنى أدركه الشاعر بالفطرة السليمة والتجربة الناضجة والتفكير في الحياة ومثله قول قس بن ساعدة الذي هدته الفطرة السليمة إلى التفكر في الواقع الذي يراه بين عينيه فعبر عن قلقه ومصيره بلغة سلهة قريبة من تعبير الفطرة ودلالتها[١١]:

---

[٩] الشرقاوي، عفت محمد: دروس ونصوص في قضايا الشعر الجاهلي، دار النهضة العربية، بيروت (١٩٧٩م)، ص١٥٢.

[١٠] الزوزني: شرح المعلقات السبع، طبعة دار القلم بيروت، لبنان، ص٨٥. والبيت لطرفة بن العبد.

[١١] الجاحظ، عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تحقيق وتقديم: فوزي عطوي، مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبناني، بيروت (١٩٦٨م)، ٣٠٩/١. البحتري، أبو عبادة الوليد بن عبد الله: الحماسة، تحقيق: لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، (١٩١٠م)، ص٦٩.

www.mtenback.com

فـــي الذّاهِبِيْـــنَ الأَوَّلِـــيْــــــــ ــنَ مِـــنَ الشُّـعُوبِ لَنَـا بَصَـائِرْ
لَمَّــــا رَأَيْـــــتُ مَـــوَارِدًا لِلْمَـوْتِ لَيْـسَ لَهَـا مَصَـــادِرْ
وَرَأَيْـــتُ قَوْمِـــي نَحْوَهـــا تَسْـعَى الأَصَـــاغِرُ وَالأَكَـــابِرْ
أَيْقَنْـــتُ أَنِّـــي لاَ مَحَالَـــةَ حَيْـثُ صَـارَ الْقَـــومُ صَـائِرْ

ومن أمثلة ذلك أيضًا قول عديّ بن زيد في الموت[12]:

أَيُّهـا الشَّـامِتُ الْمُعَيِّرُ بِالدَّهْــــ ـــرِ أَأَنْــتَ الْمُـبَرَّأُ الْمَوْفُــوْرُ
مَنْ رَأَيْتَ الْمَنُــوْنَ خَلَّيْـنَ أَمْ مَـنْ ذَا عَلَيْـهِ مِـنْ أَنْ يُضَامَ خَفِـيْرُ

ومنه أيضًا قول زهير بن أبي سلمى في معلقته[13]:

وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِــهِ بِسِــلاَحِهِ يُهَدَّمْ وَمَنْ لاَ يَظْلِـمِ النَّـاسَ يُظْلَـمِ
وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِـنْ خَلِيْقَـةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَـمِ

ولئن تجلت في هذه الأبيات ونحوها حكمة قائليها، فلقد كان للفطـــرة دورٌ في ذلك كله، فقد هدت العربي فطرته وإحساسه بتغير الحال وانتقال الحياة وتحول كـــل شيء إلى ذلك فلا يعاب به المرء ولا يجزع منه ويكون التغير سنة مـــن ســـنن الحيـــاة وطبعـــًا من طبائع المخلوقات، فجاء الشعر وهو ديوان العرب باختصـــار العبـــارة وعرض الفـــكرة وإيجاز الخاطرة التي تعرض للمرء في لحظات حياتـــه أو في تجربتـــه وإثراء مشاهداته وسوق الدليل على ما يذهب إليه أو الشاهد له، فيكون بذلك متجاوبًا مع طبعه وفطرته وآخذًا بميل نفسه وإعمال تجربته شعرًا إن استطاع الشـــعر أو نـــثرًا، فيجمع من معاني الشعر ويختار فضائل الكلم والحكمة، حتى صار عندهم غير الشـــعر المثل الجامع لبلاغة العرب وبيانهم، من مثل قول أكثم بن صَـــيْفي الحكيم الجـــاهلي:

(١٢) الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني، طبعة دار الكتب، ٢/ ١٢٠

(١٣) الزوزني: شرح المعلقات السّبع، ص١٢٣.

www.mtenback.com

«لا جماعة لمن اختلف. رُبَّ قولٍ أنفذ من صولٍ. الحُرُّ حُرٌّ وإنْ مسَّه الضُّرُّ. إذا فـــزع الفؤادُ ذهب الرُّقاد. رُبَّ كلامٍ ليس فيه اكتتام. وليس من العَدْل سرعة العذل. لا تطمعْ في كُلِّ ما تسمع. حافظ على الصديق ولو في الحريق»[١٤].

ومِن أمثالهم المشهورة التي كانت فيض إحساسهم الفطري المرهف قولهم: «رُبَّ أخ لك لم تَلِدْهُ أُمُّكَ»[١٥].

ونماذج هذا الأدب والحكمة الناجمتين عن تفكيرهم الفطري البسيط في حقـــائق الحياة والأشياء من حولهم كثيرة ومتنوعة. ومعروف أن عرب الجاهلية قد اجتمع لهم ما مكّنهم من الإجادة في الحِكَم والوصايا والخطابة والأمثال، فقد كانوا أصحاب نظـــرات فطرية صافية، وأصحاب بلاغة وفصاحة وبيان.

وليس شرطًا أن يكون أصحاب الحكمة من الكبار والشيوخ الذين مدت لهـــم الحياة في حبال العمر، ولا من الذين اصطبغوا بصبغة الأحداث أو شاركوا فيها، وإنمـــا يكفي في ذلك إنفاذ البصيرة التي تستطيع أن تتعمق في أغوار النفس وأســـرار الحيـــاة وأخلاق الناس، وإن قصرت بأصحابها الأعمار.

إن الفطرة سمة من السمات الضاربة في الجذور العربية، حتى إنّ ابن المقفـــع في تفضيله العرب على غيرهم من الأمم الأخرى كالفرس والهند والروم يجعـــل الفطـــرة وسلامتها أحد أسباب هذا الفضل، حين قال عنهم: «إنهم أعقل الأمم لصحة الفطرة، واعتدال البنية وصواب الفكْر وذكاء الفهم...»[١٦].

---

[١٤] د. شوقي ضيف: العصر الجاهلي، الطبعة الحادية عشرة، دار المعارف بمصر، ص٤٠٧.

[١٥] العسكري، أبو هلال: جمهـــرة الأمثال، ضبطه ونسقه: الدكتور أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، (١٤٠٨هـــ/١٩٨٨م)، ٣٩١/١. وانظر: الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد: مجمـــع الأمثال، دار مكتبة الحياة، بيروت، (١٩٦١م)، ١٩٦/١.

[١٦] أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس: كتاب الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه وشـــرحه: أحمد أمين وأحمد الزين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٢، (د.ت).

www.mtenback.com

فطرة العربي فيها صفاء مثل صفاء السماء التي تعلوه فلا يحجبها عنه غيم ولايغطيها الضباب ولايكفهر جوها فيعكر صفو روحه ويلبد فطرته كما تمتع بالحرية التي ينعم بها ويحافظ عليها ويعرف قدر مايتمتع به، ومن ثم نشأ العربي مفطوراً على الرأي المستقل والتفكير الشخصي، فهو يضرب في الأرض حسبما تهديه تجربته الذاتية. وقلما تنازل العربي قديمًا عن هذه المعايير والموازين مهما كانت قوة المؤثر الخارجي. وكان رضوخه للقبيلة ومثلها ضربًا من اعتزازه بشخصيته الفردية، وجريًا على احترام تراث الآباء والفخر بطرائقهم، أكثر منه التزامًا بالروح الاجتماعية، ذلك لأن عزه ومجده من عز القبيلة ومجدها وهو شعور صحيح فعزُّ الفرد لا ينفصل عن عزِّ المجتمع الذي ينتمي إليه أو الدولة التي يحمل جنسيتها ونحن نشاهد في الحاضر أفرادًا يعزون بعز أممهم ودولهم التي ينتمون إليها، وما القبيلة في الجاهلية التي يفخر بها العربي إلا الأمة له والدولة التي يحمل جنسيتها والمجتمع الذي يحميه.

وقد اتضح استعداد العربي الفطري للتحرر الفكري لدى أصحاب النفوس الواعية القادرة على إعادة النظر في التبعية الدينية للقبيلة وتحقيق مثالية عامة، على نحو ما يتمثل ذلك في جماعة الحنفاء الذين حاولوا تغيير وجه الحياة الفكرية بطريق التجربة الروحية الشخصية، وهو ما يظهر في أشعارهم وأسلوب حياتهم.

وقد تنوعت الأسباب التي أدت إلى إثارة الوعي الفكري والتيقظ الفطري عند هذه النخبة الواعية، فمن ذلك إحساسها بمساوئ الوثنية وفسادها في ذلك المجتمع القديم،واختلاف الاتجاهات المسيحية وأربابها بين أباطرة في الحيرة ويعاقبة في غسان، ثم نعرة العنصرية في اليهودية، فضلاً عن عبادة الصابئة للنجوم والكواكب، كل ذلك كان مدعاة إلى فطنة الحُنفاء إلى سوء الحال واضطراب العقيدة.

لقد اتسمت طبيعة العربي وفطرته في الغالب بالاستغراق المديد والتأهب الروحي والنأي عن ملذات الحياة، وقد تجلى ذلك أوضح ما يكون في سلوكهم وحياتهم الخاصة والعامة وفي عاداتهم وتقاليد حياتهم.

www.mtenback.com

فقد عزف عقلاؤهم عما تعوّد عليه العامة من عبادة الأوثان، وأخذوا يفتشون عن دين فطري يروي ظمأهم، ومن أشهر هؤلاء: ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحُويرث، وقسّ بن ساعدة، وأمية بن أبي الصلت.

لقد رفضت هذه الشخصيات العاقلة في ذلك المجتمع رفضًا باتًا تقييد الحرية، وذهبت تبحث عن الحقيقة التي تنسجم مع الفطرة الصحيحة، في مسعى مغاير عن مسعى فلاسفة اليونان، المعتمد على النظر العقلي المجرد، للتفتيش عن العلة الأولى والعقل الأول، وإنما سار هؤلاء الحنفاء في بحثهم عن الحقيقة وفق منهج الفطرة الذي يقوم على النظر والعمل في آن معًا، ويعتمد على أفكار وتصورات تتطلب من الجسد جهدًا وعملاً، وقد اندفعوا إلى ذلك في رغبة قوية في إصلاح النفس واتباع منهج صحيح في الحياة يتناسب مع العقل ومع الإنسانية والكونية. وهذا مايجعلنا نفهم بسهولة دخول بعضهم في الأديان الكتابية كعثمان بن الحويرث، و ورقة بن نوفل، ونفهم أيضًا انصراف بعضهم عن هذه الديانات بعد دخولهم فيها[١٧].

وهؤلاء العرب الباحثون عن حقيقة الدين، تميزوا بطابعهم الخاص الذي حفظته لنا أشعارهم، ذلك الطابع القائم على التجربة الذاتية المنبثقة من أغوار النفس المتماسكة مع الفطرة السليمة.

ولقد عَرَضَ القرآن الكريم للفطرة في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[١٨]. والدين الحنيف هو الدين الفطري الأول في مقابلة ما عرف من الأديان التي ظهرت بعد الشرك والوثنية إلى جانبه، وهي دين أهل الكتاب الذي حرّف بعضه[١٩].

---

[١٧] ابن قتيبة الدينوري: المعارف، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٩٧٠م)، ص٢٨.

[١٨] سورة الروم: ٣٠.

[١٩] دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثامن صفحة ١٢٤، مادة (حنيف).

www.mtenback.com

وواضح أن لفظ (الحنيف) هنا هو (معادل) الفطرة السليمة التي فطر الله النـــاس عليها وقد اقتصر استعمال هذه اللفظة بعد ظهور الإسلام على المسلم دون غيره، كما في قول الشاعر[٢٠]:

وَقُلْتُ لَـــهُ خُذْهَـــا بِضَرْبَـــةِ مَـــاجِدٍ حَنِيْفٍ عَلَى دِيْـــنِ النَّبِـــيِّ مُحَمَّـــدِ

واقتصر استخدامها أيضًا على معنى الاستقامة والسلامة والاعتدال،وهي معـــانٍ إسلامية متوافقة مع الإسلام ومبادئه، مثلما ورد ذلك الاستخدام في قول كعب بـــن مالك[٢١]:

لأَمْـــرِ اللهِ وَالإِسْـــلاَمِ حَتّـــى يَقُـــوْمَ الدِّيْـــنُ مُعْتَـــدِلاً حَنِيْفَـــا

وهذا الوعي الفطري هو الذي دعَا أحد حنفاء العرب قديمًا – وهو أبو قيـــس صرمة بن أنس – إلى أن يشير في أبيات له إلى اجتماع كل الأديان الصحيحـــة علـــى جوهر التوحيد المساير للفطرة السليمة، فقال[٢٢]:

سَـــبَّحُوا اللهَ شَـــرْقَ كُـــلِّ صَبَـــاحٍ طَلَعَـــتْ شَمْسُـــهُ وَكُـــلِّ هِـــلاَلِ
وَلَـــهُ هَـــوَّدَتْ يَهُـــوْدُ وَدَانَـــتْ كُـــلُّ عَيْـــنٍ إِذَا ذَكَـــرْتَ عُضَـــالِ
وَلَـــهُ شَـــمَسَ النَّصَـــارَى وَقَـــامُوا كُـــلَّ عِيْـــدٍ لِرَبِّهِـــمْ وَاحْتِفَـــالِ
وَلَـــهُ الرَّاهِـــبُ الحَبِيْـــسُ تَـــرَاهُ رَهْـــنَ بُـــؤْسٍ وَكَـــانَ نَـــاعِمَ بَـــالِ

وهكذا دعت فكرة التوحيد طائفة الحنفاء للبحث عن دين إبراهيـــم الخليـــل والتماسه حتى يكونَ لديهم آخر الأمر توحيدًا صافيًا رائقًا، عبّرت عنه ابنة خالد بـــن

---

[٢٠] دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثامن، صفحة ١٢٤، مادة (حنيف).

[٢١] المصدر السابق نفسه.

[٢٢] لويس شيخو: شعراء النصرانية، طبعة اليسوعيين، سنة ١٨٩٠م، ص٨-٩.

www.mtenback.com

سنان بقولها: (حنيف) حين سمعت الرسول ﷺ يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[٢٣] فقالت: كان أبي يقول ذا..[٢٤].

وقد أورد القرآن الكريم صورةً ناصعة لهذا التيقظ الفطري الذي يضفي على الإله أقصى ما يمكن من تنزيه وإجلال، حيث قال الله تعالى حاكيًا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢٥].

وهذه الصورة القرآنية تكشف العلاقة الفطرية بين العابد والمعبود كما تمثلت في محاولة إبراهيم الخليل. إنها محاولة قوامها التيقظ الفطري الواعي، و الشعور بأن هذا الذي يحيط به ليس كل الوجود، والقلق الدائم الذي يندرج إلى راحة وسكن، والتمثل الواضح للألوهية الذي تهدأ عنده النفس.

وهذا الكلام يتفق مع ما ذكره أكثر الباحثين من أن العرب في نهاية العصر الجاهلي قد سئموا معتقداتهم الخرافية الأسطورية المنافية للعبادة الصحيحة حتى وجدنا من الشعراء من سخر من الآلهة التي عبدوها وربما ثار عليها، يصور ذلك شاعر من بني عبد ملكان من كنانة في صنم لهم يقال له سَعْد حيث وصف الصنم وفوضى العبادة:

---

[٢٣] سورة الإخلاص: ١.

[٢٤] ابن قتيبة الدينوري: المعارف، ص٣٩.

[٢٥] سورة الأنعام: ٧٧-٧٩.

www.mtenback.com

أَتَيْنَا إِلَـــى سَـــعْدٍ لِيَجْمَـــعَ شَـــمْلَنَا فَشَتَّتَنَا سَعْدٌ فَلاَ نَحْـــنُ مِـــنْ سَـــعْدِ
وَهَلْ سَعْدُ إِلاَّ صَخْـــرَةٌ بِتَنُوفَـــةٍ[٢٦] مِنَ الأَرْضِ لاَ يَدْعُو لِغَيٍّ وَلاَ رُشْـــدِ

ومن ذلك قول آخر في صنم كان اسمه ذا الخلصة، وقد أتاه ليستشيره في الأخذ بثأر أبيه الذي قتل ويستقسم عنده بالأزلام فيخرج السهم ينهاه عن ذلك فيقول:

لَوْ كُنْتَ يَـــا ذَا الْخُلْصَـــةِ الْمَوْتُـــورَا
مِثْلِـــي وَكَـــانَ شَـــيْخُكَ الْمَقْبُـــورَا
لَـــمْ تَنْـــهَ عَـــنْ قَتْـــلِ الْعِـــدَاةِ زُوْرَا

ومن أمثلة هذه السخرية بالآلهة المعبودة من دون الله ما ذكره ابن قتيبة من اتخاذ بني حنيفة في الجاهلية إلهًا من حَيْسٍ[٢٧] وعبادتهم له دهرًا طويلاً، ثم أكلهم له بعـــد أن حلت بهم مجاعة، حيث قال فيهم رجل من بني تميم ساخرًا:

أَكَلَتْ رَبَّهَـــا حَنِيْفَـــةُ مِـــن جُـــوْ عٍ قَدِيْـــمٍ بِهَـــا وَمِـــنْ إِعْـــوَازِ

وقال آخر[٢٨]:

أَكَلَتْ حَنِيْفَةُ رَبَّهَا زَمَـــنَ التَّقَحُّـــمِ وَالْمَجَاعَـــهْ
لَمْ يَحْذَرُوا مِنْ رَبِّهِمْ سُـــوْءَ الْعَوَاقِـــبِ وَاتِّبَاعَـــهْ

ويتضح أن الفترة السابقة للإسلام قد شهدت تطورًا هائلاً في التفكـــير الديـــني لدى العرب بظهور أمثال هؤلاء الحنفاء الذين كانوا يمثلون ومضات النور في المجتمـــع العربي آنذاك وقد سلك هؤلاء في حياتهم مسلكًا دينيًا حميدًا، ونهجًا أخلاقيًا فـــاضلاً،

---

[٢٦] تنوفة: الفلاة لا ماء فيها ولا أنيس.

[٢٧] حَيْس: أقط يخلط بالتمر والسّمن.

[٢٨] ابن قتيبة: المعارف، ص٦٢١.

www.mtenback.com

وهو مسلك يميل إلى الفطرة الدينية، قوامه إيمان بالله وعمل صالح من غير نظام معين للعبادة، مع شيء من خوف الله والثقة به.

الفطرة والجمال:

وحين نتأمل في معنى الفطرة كما وردت في القرآن والحديث والنصوص والأدب قديمه وحديثه، نجد أنها تعني كل المظاهر الدالة على الجمال والجلال والنقاء والصفاء. والرسول ﷺ يقول: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه»[٢٩]. وقد أدرك الشعراء هذه المعاني السامية فذكروها في أشعارهم كثيرًا فالشاعر عدنان مردم يقرن بين الطفولة البريئة والملائكية السماوية في لوحة موحدة ترسم صورة الفطرة في أكمل صورها فيقول[٣٠]:

أَطْفَالُنَا فِيْ كُلِّ مَنْعَرَجٍ ... شِبْهُ الْفَرَاشِ بِحَافَتَيْ نَهْرِ

دُنْيَاهُمُ كَانَتْ تَشِعُّ سَنًا ... آفَاقُهَا وتَفِيْضُ بِالتِّبْرِ

وَنَهَارُهُمْ طُهْرٌ صَحَائِفُهُ ... وَأَدِيْمُهُ يَخْضَلُّ مِنْ طُهْرِ

كَانُوا الْمَلائِكَ فِي وَدَاعَتِهِمْ ... وَضَمِيرُهُم أَنْقَى مِنَ الْقَطْرِ

وَخَلتْ عَنِ الأَطْمَاعِ أَضْلُعُهُمْ ... فَقُلُوبُهُمْ كَتَوَاقِبِ زُهْرِ

ونلحظ المعاني الجمالية المرتبطة بالفطرة أيضًا في حديث الشابي عن عالم (الغاب) الذي يجعله معادلاً للشذا والسِّحر والنغَم والحُبِّ والأحلام والإلهام حيث يقول[٣١]:

---

[٢٩] البخاري: صحيح البخاري، ١٧٦/٣. ومسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الأولى، (١٣٧٥هـ/١٩٥٥م)، رقم ٢٦٥٨.

[٣٠] عدنان مردم بك: ديوان نفحات شامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) ص١٢٤.

[٣١] أبو القاسم الشابي: أغاني الحياة، دار الكتب الشرقية، تونس، ط١، (١٩٥٥م)، ص ١٨٨ - ١٨٩.

www.mtenback.com

بَيْتٌ بَنَتْهُ لِي الْحَيَـــاةُ مِـــنَ الشَّـــذَا ... وَالظِّـــلِّ وَالأَضْـــوَاءِ وَالأَنْغَـــامِ
بَيْتٌ مِنَ السِّـــحْرِ الْجَمِيْـــلِ مُشَـــيَّدٌ ... لِلْحُـــبِّ وَالأَحْـــلاَمِ، وَالإِلْهَـــامِ
فِي الْغَابِ ســـحْرٌ، رَائِـــعٌ مُتَجَـــدِّدٌ ... بَـــاقٍ عَلَـــى الأَيَّـــامِ وَالأَعْـــوَامِ
وَشَذَا كَأَجْنِحَةِ الْمَلاَئِـــكِ، غَـــامِضٌ ... سَاهٍ يُرَفْـــرِفُ فِـــي سُـــكُوْنٍ سَـــامِ
فِي الْغَابِ، دُنْيَا لِلْخَيَـــالِ، وَلِـــلرُّؤَى ... وَالشِّـــعْرِ، وَالتَّفْكِـــيْرِ، وَالأَحْـــلاَمِ

ليست الفطرة هي (معادل) عالم الطفولة والملائكة والغاب، بما فيه من سحرٍ وجمال فقط، بل إنها أيضًا (معادل) كل القيم الجميلة كالأحلام، والألحان، والصباح الجديد، والسماء الضحوك، والليلة القمراء، والورود، وابتسام الوليد، وهي تلك الصفات التي أضفاها أبو القاسم الشابي على محبوبته التي تغنى بصفاتها وقيمها في قصيدته «صلوات في هيكل الحبّ» إذ يقول[٣٢]:

عَذْبَةٌ أَنْتِ، كَالطُّفُولَـــةِ كَـــالأَحْلاَمِ ... كَـــاللَّحْنِ كَالصَّبَـــاحِ الْجَدِيْـــدِ
كَالسَّـــمَاءِ الضَّحُـــوْكِ، كَاللَّيْلَـــةِ الْقَمْرَاءِ، كَالْوَرْدِ، كَابْتِسَـــامِ الْوَلِيـــدِ

فالمحبوبة، اجتمعت لها كل الصفات الجميلة والمثل الرفيعة التي كان محورها العذوبة، ولكن أي عذوبة؟ إنها عذوبة الطفولة والأحلام،واللحن، والصباح الجديد، والسماء الضحوك،والليلة القمراء والورد، ابتسام الوليد، وكل معنى تحتمله العذوبة.

وهذا يعني أن محبوبة الشاعر قد اجتمعت فيها كل مقومات الفطرة السليمة، فصارت تعني كل شيء في حياته، بل كأنما أصبحت هي التي تمنحه الحياة وتجعل لحياته عذوبةً ومذاقًا، على أن العذوبة التي تجتمع فيها، الصفات والمشارب التي يعددها الشاعر هي عذوبة خاصة، ذات مذاقٍ خاص، معادل للفطرة السليمة.

---

[٣٢] أبو القاسم الشابي: أغاني الحياة، ص١٢١-١٢٤.

www.mtenback.com

لذا وجدنا الشابي بعد هذين البيتين الأولين من القصيدة يغـــوص في أعمـــاق الفطرة التي تمثلها هذه المحبوبة بصفاتها المثالية الفائقة ليسبر أغوارها،وذلك من واقـــع إحساسه الجَادّ بها، لأنها تمثل – في رأيه – سِرّ الوجود، ومصدر العطاء والبهجـــةَ في الحياة، فهو يقول بعد مطلع القصيدة مباشرة:

يَـــا لَهَـــا مِـــنْ وَدَاعَـــةٍ وَجَمَـــالٍ وَشَـــبَابٍ مُنَعَّـــمٍ أُمْلُـــــوْدِ!
يَالَهَا مِنْ طَهَارَةٍ تَبْعَـــثُ التَّقْدِيْـــسَ فِـــيْ مُهْجَـــةِ الشَّـــقِيِّ الْعَنِيْـــــدِ!
يَالَهَـــا رِقَّـــةً يَكَـــادُ يَـــرِفُّ الْـــوَرْدُ مِنْهَـــا فِـــي الصَّخْـــرَةِ الْجُلْمُـــوْدِ!

وهنا يقدم الشابي من خلال تغنيه بهذه المحبوبة والإشادة بمحاسنها وصفاتهـــا، النموذج الفريد، والمثال الخالص للفطرة السليمة التي تمثلها المحبوبة التي تمازجت فيهـــا صفات الوداعة والجمال والشباب والرقة والطهارة، فأحالها إلى طاقة روحية خـــلاقة، كانت مصدر هداية وإعجاز، فإذا العنيد الشّقي، رمز الجحود، يكون مذعنًا ورعًـــا، وإذا بالصخر، رمز الصلابة والقسوة، يتفجر عن الورد[٣٣].

فالمحبوبة – كما يراها الشاعر العاشق – محبوبة فطرية تتزامى صفاتها في كـــل الأنحاء وتتجلى أنفاسها في كل أرجاء الوجود، في المحســـوس المجـــرد، وفي الســـاكن والمتحرك، وفي كل أصداء الطبيعة، فعالمها عالم الفطرة، عالم غير محدود وغير متناهٍ.

إنه عالم أثيري فضفاض تسبح فيه المحبوبة في انعتاق من قيود الزمان أو المكـــان. ولذا فإنها تتجلى في كل مناحي الوجود بمحسوساته ومرئياته ومعنوياته، وتســـتحضر أجمل صور الحياة والطبيعة والزمن والوجود الفطري.

---

[٣٣] المسدي، عبد السلام: قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، دار سعاد الصباح، الكويت، ط٤، (١٩٩٣م)، ص٢٦.

www.mtenback.com

وكل صورة من هذه الصور لها فاعليتها الإيجابية والدلالية، إذ تكشف كل واحدة عن جانب من الجمال الروحي الفطري الماثل في المحبوبة، وتصور مدى انعتاق الشاعر من قيوده في بحثه الدؤوب عن الجمال الفطري المطلق الذي تمثله المحبوبة.

فذكرى الشاعر للمحبوبة تولد استحضاره معاني الفطرة: الرّقة والبراءة والوداعة والنضارةَ والغضاضة والحيوية...

الإسلام دين الفطرة:

إذا علمنا أن خالق الفطرة هو الله تعالى، فإن الإسلام يقينًا هو دين الفطرة، إذ يستحيل أن يكون في دين الله، أو شرعه القرآني أو النبوي أمر يخالف الفطرة أو يعارض ما فطر الله عليه الإنسان، لأن الحكيم العالم بما خلق، يضع الشريعة المناسبة للمخلوق حتى لايعصي الخالق.

ولو نظرنا إلى الأمر بتفصيل نقول: إن الفطرة الإنسانية تتشكل من مجموعة من الطاقات الحسية والنفسية والعقلية المركبة في الإنسان، كالحب والكره والصراع والجنس والتملك وغير ذلك من الطاقات الفطرية، الأخرى المركبة فيه[٣٤]، وهي طاقات يقرّ الإسلام بوجودها، ويسمح لها بالتعبير عن نفسها بانفعالات الإنسان وتصرفاته، لكنه في الوقت ذاته يحوطها بالضوابط والحدود والقوانين التي تنظم حركتها وتضبط توجهاتها وتصونها نقيةً مهذبةً راقيةً بحيث لا تتجاوز الحدود أو تتعدى الطبيعة الأصيلة فيها[٣٥].

---

[٣٤] انظر مجلة الوعي الإسلامي، السنة السادسة، العدد (٧٠) شوال (١٣٩٠هـ/٢٩ نوفمبر «تشرين الثاني» ١٩٧٠م)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، مقال (الفطرة والكون) للأستاذ البهي الخولي ص٣٤- ٣٤.

[٣٥] انظر محمد قطب: منهج الفن الإسلامي، دار الشروق، بيروت، ص٦٣-٦٤.

www.mtenback.com

فمثلاً يعترف الإسلام بأن حب المال وحب الزواج وحب الجنس وحب الولد هو فطرة مركزة في الإنسان، ويقول الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾[٣٦].

وهذا السياق القرآني ليس فيه ما يدل على مدح أو ذم وإنما فيه إقرار بوجود هذا الفطر والغرائز في الإنسان ثم يأتي بعد ذلك في مواضع قرآنية أخرى الكلام عن الغرائز وتقنينها وبيان زمنية الحمدِ والذّمّ فيها: متى تكون محمودة ومتى تكون مذمومة؟ وذلك لَمّا ذكر الله المؤمنين ووصفهم بأنهم ﴿لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾[٣٧] عقب على ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾[٣٨].

فهذه الغرائز المذكورة في آية آل عمران وردت على سبيل التقرير، بعيداً عن الحمد والذم، لكنها في مواضع أخرى من القرآن جاءت محمودة أو مذمومة لما يلابسها من النية والقصد وطريقة الإشباع وآدابه.

ففي أحد المواضع نجد القرآن الكريم يدفع عن الإنسان ذلك الشعور الذي يتقمص بعض الناس فيحملهم على الإعراض عن الزواج، ترفعًا عن الجانب المادي الجسدي فيه، ظنًّا منهم أن الحياة يمكن أن تقوم بدونه، وأن الحاجة إليه ليست ملحة ولا ضرورية، فالمرء يستطيع أن يحيا دونما حاجة إلى تحمل أعباء الطفولة وتربيتها، فخير له إذن البعد عن الارتباط الأسري لئلا تترتب عليه مسؤوليات هو في غنى عنها. وهذه النظرة لا شك مخالفة للفطرة، ومن أجل ذلك نرى التوجيه الإلهي يبين أن كمال الإنسان في الاستجابة لفطرته وفق ما يرضي الله، موضحًا أن هذه هي فطرة أنبيائه

---

[٣٦] سورة آل عمران: ١٤.

[٣٧] سورة المؤمنون: ٥.

[٣٨] سورة المعارج: الآية ٣٠.

www.mtenback.com

ورسله فهم يتزوجون ولا يحرمون أنفسهم مما أحل الله لهم، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾[٣٩].

وأكد القرآن على فطرة الترابط بين الزوجين، وقوة العلاقة بين الجنسين قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[٤٠].

عاطفة البنوّة وحنان الأبوة ملازمان للفطرة النقيّة، فالرحمة مغروسة في نفس الأبوين قبل أن يريا الطفل وبعد ولادته، ومنها تنطلق أسس التربية الصحيحة، فالطفل يولد على الفطرة الصحيحة، فطرة التوحيد، وعلى عقيدة الإيمان، وعلى أصالة الطهر والبراءة، فإذا تهيأت له التربية المنزلية السليمة الواعية والبيئة الاجتماعية الصافية، نشأ على الإيمان الراسخ، والأخلاق الفاضلة، وهذه حقيقة إيمانية يقررها القرآن الكريم، ويؤكدها الحديث الشريف، ويقرها علماء التربية والأخلاق، قال تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ....﴾[٤١].

وفي هذا السياق يجب ألا نغفل دور التربية وتأثيرها في إعداد الطفل بحسب ما توجهت به، فإن توجهت بالخير إلى المجتمع كان الطفل صالحًا سويًا، وإن أهملت الجانب التربوي السليم أنتجت للمجتمع شخصية منحرفة غير سوية يقول الشاعر:

وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الفِتْيَانِ مِنَّا ... عَلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ

وَمَادَانَ الفَتَى بِحِجَى وَلَكِنْ ... يُعَوِّدُهُ التَّدَيُّنُ أَقْرَبُوهُ

---

[٣٩] سورة الرعد: الآية ٣٨.

[٤٠] سورة الروم: الآية ٢١

[٤١] سورة الروم: الآية ٣٠.

www.mtenback.com

إن للبيئة أثرًا في توجيه الفطرة إما بتقويتها إن كانت البيئة صالحة، وإمَّا بإضعافها وانحرافها إن كانت سيئة، والمسؤولية مناطة بالوالدين أولاً، ثم بالمجتمع بعد ذلك، ولذلك كان الحرص على رعاية النشء، وحمايتهم من الانحراف عن سبيل الفطرة السليمة أساسًا لبناء مجتمع سليم، يقول الشاعر:

وَلَيْسَ النَّبْتُ يَنْبُتُ في جِنَانٍ ... كمِثْلِ النَّبْتِ يَنْبُتُ في الفَلاَةِ

وهَلْ يُرْجى لأَطْفَالٍ كَمالٌ ... إذا ارْتَضَعُوا ثُدِيَّ النَّاقِصَاتِ

إن الإنسان السوي هو الذي يستجيب للفطرة، ويواجهها بما تستحق من مواقف، فالرابطة بين الزوجين اقتضتها الفطرة السليمة، وجعلتها سبيلاً لتحقيق حاجات نفسية وأخرى اجتماعية، وجعلتها السبيل إلى إعمار الكون واستمرار التعبّد لله سبحانه، بل جعلها الله وسيلة مشروعة للمودة والرحمة، فكيف تتحقق جميع هذه الأغراض السامية لو عزف الناس عن الزواج؟!، كيف يتم التناسل المشروع وكيف تستقر الحياة الإنسانية السوية بدون هذه العلاقة.

ثم إن الغريزة الفطرية التي ركبت في النفوس أمدتها بحب الولد، وجعلت الزواج سبيله والنهج الذي به يستمر بقاء النسل الإنساني، وعن طريقه يتكاثر البشر، فقال سبحانه وتعالى منوّهًا عن هذه الحقائق والحكم الاجتماعية والمصالح الإنسانية:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾[٤٢]،

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا﴾[٤٣].

---

[٤٢] سورة النحل: الآية ٧٢.

[٤٣] سورة النساء: الآية ١.

www.mtenback.com

إن الزواج فضلاً عن كونه حاجة تتفق والفطرة السليمة هو السبيل إلى حفظ الأنساب، ومعلوم ما يتبع هذه الحاجة من استقرار نفسي، وبُعد عن التحلل والفساد.

والإسلام دين يوافق الفطرة في عقائده وأحكامه، ولذلك سمي «دين الفطرة»، فالتوحيد الذي جاء به الأنبياء كلهم والعبادة التي أمروا بها، توافق فطرة التوجه لله والخضوع له وحده، وهي الفطرة المغروزة في قلب كل مخلوق وعقله.

والزواج - مثلاً - الذي شرعته الأديان يوافق الفطرة لأن شرعيته كانت من منطلق أنه يلبّي فطرة غريزية عند الإنسان وهي إشباع الظمأ العاطفي لدي الجنسين وليس إشباع الغريزة الجنسية فحسب.

ونحن نعلم أن الأنثى مخلوقة من الذكر كما ورد في القرآن الكريم: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[٤٤]. ولذا كان طبيعيًا أن يحنّ الإلف لأليفه والفرع لأصله، وإذا لم تجد هذه العاطفة والفطرة الطريق الحلال اتجهت إلى الطريق الحرام.

والأديان عمومًا فيها تنظيم للفطرة السليمة في المعاملات وعلاقات الأفراد ببعضهم، وتحديد الملكية الفردية والعامة، وهي بذلك ترسم دور الفرد وحقوقه، بحيث لا يعتدي هو ولا يعتدى عليه، وإذا تحققت هذه الوظيفة رأيت المجتمع المتماسك، وقد خلا من الفوضى، وساد فيه النظام، وشاع بين أفراده السلام والمحبة، وكمثال لرسم حدود المعاملات بين أفراده ترى الدين يحدد العلاقة في البيوع ويخرجها من غرر الرِّبا الذي يزرع في النفوس روح البغضاء فقال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾[٤٥].

فأمام فطرة حب الملكية طريقان في الكسب: طريق حلال يتمثل في البيع والتجارة ويجمع صورها المباحة وطريق حرام يتمثل في الرِّبا وغيره من ضروب الكسب المحرمة في هذا الدين.

---

[٤٤] سورة النساء: ١.

[٤٥] سورة البقرة: ٢٧٥.

www.mtenback.com

فالربا بما يسببه من سوء في العلاقات البشرية، إنما هو نتيجة لمخالفته منهج الفطرة السليمة الداعية إلى التواد والرحمة بين الناس، وقل مثل ذلك في كل حال يخالف فيه الناس المنهج القويم المتمثل في أساليب الحياة وعلاقة الناس بعضهم ببعض. فكما أن الإسلام حرّم الربا فقد أحلّ البيع ورسم له أطره التي ينبغي أن تسود الجماعة فتنظم حياتها، ومثل ذلك في الزواج فقد أباحه وشجع الشباب عليه؛ لأنه السبيل السليم لتلبية الحاجات الغريزية البشرية، وفي المقابل حرّم الزّنا، لما فيه من خروج عن الفطرة السوية في قضاء الوطر.

ونجد التشريع الإلهي لا يغلق في وجه البشرية بابًا من أبواب الحرام إلا ويفتح بابًا من أبواب الحلال، خيرًا منه وأيسر وأطهر وأزكى وأحسن عاقبةً ولا يعرض عن الطريق السوي، والطريق النظيف المشروع إلا منحرف الفطرة، ممسوخ الباطن.

وعندما ندقق في أوامر الشرع ونواهيه، نجد أن الهدف من ذلك كله تزكية الفطرة الإنسانية وتوجيهها نحو الأفضل والأطهر والأزكى.

فعندما يذكر الله أنّه ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾[٤٦].

نعم، فكل هذه الأشياء المذكورة في صدر الآية محببة بالفطرة إلى كل نفس، والحصول عليها بالوجوه المشروعة مباح، لكن على الإنسان ذي الفطرة السليمة ألا ينسى أن ذلك كله متاع الحياة الدنيا، وأن التنافس في الدنيا إنما يكون في مثل ذلك، ولكن هذا عرض زائل، فلا ينبغي أن يوليه المرء اهتمامًا يخرج به عن حدوده، فيجعله أكبر همّه، وينسى أن ما عند الله خير وأبقى، ولذلك نرى القرآن ينبه على تلك

[٤٦] سورة آل عمران: ١٤.

www.mtenback.com

الحقيقة فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ. قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾[٤٧].

وهكذا الحال مع تحصيل المال والحصول على البنين فهما وإن كانا مطلبين بالفطرة، إلا أن الله شرع خيرًا منهما في المقابل وجعله في الباقيات الصالحات، قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ثم يُعقب على ذلك بقوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[٤٨].

وفي موضع آخر، نجد القرآن يشير إلى حب الإنسان وتعلقه بالآباء والأبناء والإخوة والأزواج والعشيرة والأموال والمساكن والأوطان والتجارة وغيرها من أمور الحياة، لكنه في الوقت ذاته يحذر من أن يفوق حب هذه الأمور كلها حب الإنسان لله تعالى ولرسوله الكريم والجهاد في سبيل الله، لأن حبّ المظاهر الدنيوية وتغليب هذا الحب على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله، معناه (الفسق) الذي يهدد صاحبه، والانتظار حتى يأتي الله بأمره. وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[٤٩].

---

[٤٧] سورة آل عمران: ١٤-١٥.

[٤٨] سورة الكهف: ٤٦.

[٤٩] سورة التوبة: ٢٤.

www.mtenback.com

ونجد الإسلام يرفع بالإنسان من كونه حيوانًا تدفعه نفسه إلى إشباع غرائزه الفطرية، إلى كونه مؤمنًا يتطلع إلى اللذات الكاملة الدائمة في رضوان الله وجناته.

وفرقٌ كبير بين اللذة الفانية في الحياة الدنيا واللذة الباقية الأبدية في الآخرة. وفرقٌ كبير بن اللذة العابرة السريعة الخاطفة في المعيشة على الأرض، تلك اللذة المسبوقة بالجوع والعطش والحرمان والبعد ويتبعها الإعراض والسأم والملل والكراهية، والمشوبة بالأكدار والأحزان والآلام والمخاوف، وبين اللذة الأبدية في العالم الآخر، تلك اللذة التي لا يسبقها حرمان ولا ظمأ ولا يلحقها ملل ولا كدر ولا يقترن بها همّ ولا حزن. والفطرة السليمة هي التي تعيش في هناء الدنيا وراحتها.

وكثير من ملذات الحياة الدنيوية يسبقها، أو يعقبها أو يصاحبها شيء تستقذره النفس وتأنف منه وتشمئز، إذا لونت بالمكر والكيد والبغضاء والتنافس غير الشريف.

وحين كان المؤمنون الأوائل في عصر الإسلام الأول يَعُون هذه المعاني ويتمسكون بها، ويتذوقونها، استقامت لهم الحياة واعتدلت في نفوسهم الموازين، فلم يعرضوا عن المباح إعراضَ الرهبان،و لم يقبلوا عليه إقبالَ أهل الجحود والكفران، بل جعلوه طريقًا لترقية النفس وتزكيتها وتهذيبها، وضَحّوا به إذا دعا داعي البذل في سبيل فضائل الإنسان وخدمة البشرية وعفاف الكسب.

فالإسلام جاء موافقًا للفطرة مُقرًا بها، منظمًا إياها، مهذبًا لها مزكيًا. فهو يقيسها بمقياسه الدائم الذي يقيس به كل شيء: فما سار مع الناموس، ناموس الحياة والكون، فهو صالح وصواب وما خالف هذا الناموس فهو خطأ، وعمل غير صالح. فالإنسان السوي لا ينكر شيئًا من الطاقات الفطرية، وما حولها من مشاعر وأكدار لأن منهجه الذي يسير عليه في معالجة النفس هو الاعتراف بالطاقات البشرية كلها، نظيفة في معرض النور، لا مستقذرة ولا متلبسة في الظلام وهو يحرص على حظه منها.

www.mtenback.com

إن الله هو خالق الفطرة، بكل ما تشتمل عليه من ميول ودوافع وطاقات، وقد خلقها لحكمة وغاية، لتؤدي دورها المرسوم لها في بنية الكون ونظامه، لا ليكبتها ويقطع عليها الطريق، ولكنه سبحانه وتعالى يطلب في الوقت ذاته من هذه الفطرة أن ترتفع و تتهذب، لأن هدف الوجود كله؛ كما يعبر عنه السلوك الفطري الصحيح وتقرره كل حقائق الوجود، ليس مجرد استمرار الحياة ولكن رفعها وتجميلها للوصول بها إلى مرتبة الجمال والكمال.

ذلك ناموس الكون الأكبر، وهو كذلك الناموس الذي يقيس به الإسلام كل عمل من أعمال الإنسان...

فكل ما يؤدّي من الطاقات و الدوافع الفطرية الكامنة في الإنسان إلى الصعود والرفعة وكل ما يؤدّي منها إلى القوة والتماسك، وكل ما يؤدّي منها إلى التوازن، وكل ما يؤدّي منها إلى جمال المشاعر وصفاء النفوس، وطلاقة الأرواح. فهو جميل، ومباح ومطلوب.

وكل ما يؤدّي من هذه الطاقات والدوافع الفطرية إلى الهبوط والانحدار والسقوط إلى عالم الحيوانية، وإلى الضعف والانحلال والتفكك والانحراف الذي يفقد التوازن، ويؤدّي إلى غلظ المشاعر، وغرام الشهوة التي تخنق صفاء الروح؛ فهو قبيح، منكر، حرام. وهذا كله يلتقي مع الكون في فطرته الشاملة: فطرة التناسق والتوازن والجمال[٥٠].

ومعنى ذلك أن جوهر رسالة الحضارة الإسلامية إلى العالمين هي مبادئ الأخلاق وحسب الإنسان أن تكون له فطرة سليمة يحتكم إليها في إخلاص وصدق، فتميز له الحق من الباطل عندما تختلط بينهما الحدود والفواصل وتهتدي بروح المبدأ ولا تتقيد بحروفه.

---

[٥٠] انظر محمد قطب: منهج الفن الإسلامي، دار الشروق، بيروت ص٧-٧٢ (بتصرف).

www.mtenback.com

إن رسالة الدين الإسلامي وسائر الشرائع كلها موجهة إلى الإنسان في كل زمان ومكان للحفاظ على مناخ الفطرة السوية فيه، والنهوض بهذه الفطرة إلى مراقي السمو والرفعة،وتعهد جوانب الخير فيها بالتربية والتوجيه والتهذيب والإصلاح عن طريق خضوع الإنسان في كل شؤون حياته لمنهج الله تعالى، والاحتكام إلى كل ما أمر به ونهى عنه، على نحو ما أوضح ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[٥١].

فالفطرة تزكو وتزهو جوهرًا وصفاءً ونقاءً وطهرًا حين يستشعر الإنسان ربوبية خالقه وقدرته، وحين يجعل له من نفسه وقلبه رقيبًا وواعظًا يأمره وينهاه، كما يقول الإمام ابن سيرين: «إذا أراد الله تعالى بعبدٍ خيرًا،جعل له واعظًا من قلبه يأمره وينهاه»[٥٢].

لأنه بهذه المراقبة والمتابعة المنبعثة من داخل الإنسان، تصون الفطرة نقاءها وصفاءها، ولذا، فإن غياب مبدأ المراقبة والمتابعة الواعية لاستقامة السلوك الفاضل في حياة الإنسان،وغفلة هذا الإنسان وانطماس الوازع الأخلاقي والديني في نفسه وقلبه يكون سببًا قويًا في إفساد الفطرة السوية وانحرافها ووقوعها في أدران المعصية والخطيئة، على نحو ما يشير أبو العتاهية إلى ذلك بقوله[٥٣]:

تَصَبَّرْ عَنِ الدُّنْيَا وَدَعْ كُلَّ تَائِهٍ ... مُطِيْعِ هَوىً يَهْوِي بِهِ فِي الْمَهَامِهِ

دَعِ النَّاسَ وَالدُّنْيَا فَبَيْنَ مُكَالِبٍ ... عَلَيْهَا بِأَنْيَابٍ وَبَيْنَ مُشَافِهِ

وَمَنْ لَمْ يُحَاسِبْ نَفْسَهُ فِي أُمُوْرِهِ ... يَقَعْ فِيْ عَظِيْمٍ مُشْكِلٍ مُتَشَابِهِ

---

[٥١] سورة النساء: ١٢٥.

[٥٢] الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مصر ٢/٢٦٤.

[٥٣] أبو العتاهية، أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم: ديوان أبي العتاهية، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٢٤٣.

www.mtenback.com

وَمَا فَازَ أَهْلُ الْفَضْـــلِ إِلاّ بِصَـــبْرِهِمْ عَنِ الشَّهَوَاتِ وَاحْتِمـــالِ الْمَكَـــارِهِ

فالفطرة السليمة تهدي المرء إلى السلوك السوي وتهدي صاحبها إلى اتبـــاع مـــا ترضاه طبيعته، فيستقيم سلوكه وتكبح جماح الرغبات النفسية وينجي نفسه من الهـــلاك باتباع جادة الصواب وهي حظ مشترك للناس كافة كل له منها نصيب يصلـــح ويزيـــد العناية به والرعاية له أو يختفي ويبتعد بمقدار بعد المرء عن كبح الجماح، حين يرسل العنان لشهواته وملذات حياته، فتصبح حياته فوضى لا رابط لها ولا قيد يحد من أخطائها.

ونحن نرى في المجتمعات أفرادًا يتّصفون بكثير من الصفات الحسنة، كـــالصدق والكرم والوفاء بالعهد وإغاثة الملهوف، لأن لديهم بقايا من الفطرة السليمة لم تفســـدها المادية والانحراف الذي يسود مجتمعاتهم، كما كان الأمر عليه في الجاهلية، إذ نجد فيهـــا أفرادًا من الحنفاء الذين عافت نفوسهم مظاهر الوثنية والانحطاط الذي ران على مـــن حولهم، فالفطرة تتجدد في نفوس الناس الطيبة وتقوى كلما وجدت الرعاية لها والعناية بها.

إن الفطرة تتواءم مع دين الله وسننه في كونه، فهي تنسجم انسجامًا قويًـــا لأنهـــا تجري مع ناموس الكون وسنة الله في الخلق والوجود.

والدين القيم هو أساس النبوات التي زحمت القرون الأولى، ثم ختمـــت أخـــيرًا بالإسلام الذي نقى الأصول مما اعتراها، ونقى حقيقة الفطرة عن كل مـــا يشـــينها، وأرسى الدين على دعائم الحق، فلا تحوير بعدُ ولا تبديل إلى آخر الدهر[٥٤].

ومن دلائل انسجام فطرة الإنسان مع كينونته، أن الإنسان بفطرته التي ولد بها يدرك أن العدل حسن والظلم قبيح،وأن العلم مفخرة،والجهل معرة وأن الطهـــر سمـــو وضدّه سقوط.

---

[٥٤] الشيخ محمد الغزالي: علل وأدوية، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط٢، (المحرم ١٤٠٥هـــ/ســـبتمبر ١٩٨٤م) ص ٤٩.

www.mtenback.com

ومع تجاوب المرء مع فطرته، ومع تعاونه مع أشباهه يمكن إقامة مجتمع أقرب إلى روح الطبيعة السليمة الناضجة، أو أقرب إلى تعاليم الإسلام[٥٥].

ومن دلائل انسجام الفطرة مع الطبيعة البشرية أن متطلبات الفطرة ومستحباتها مقبولة في كل المجتمعات البشرية لا ينكرها أحد ولا يعترض عليها معترض وهو قانون محبب لكل الناس، من استطاعه والتزم به ومن عجز عن الالتزام وقصر عنه، كلّهم لا ينكر فضلها ويرى استحسانها حتى العاجز عن كبح جماح النفس يتمنى لو استطاع أن يعود بكل تصرفاته إلى فطرته الأولى.

انظر إلى الإنسان في بيته مع زوجته، تراه مطمئنًا مرتاح الضمير، يدخل بيته ويخرج منه أمام الناس في أمنٍ وهدوء، ويمشي في الشارع مصطحبًا زوجته أمام الناس مُتزنًا واثقًا، وانظر إلى الشخص نفسه مع امرأة أخرى لا تربطه بها غير المتعة الزائلة، ترى الحال مختلفًا، إذ يكون قلقًا متوترًا وَجِلاً. والفارق بين الحالين هو الحلال والحرام اللذان تعرفهما كل نفس بالفطرة، حتى النفس التي لم تعلم شيئًا عن الدين.

وانظر إلى اللص، تراه يرتكب جريمته بعيدًا عن أعين الناس، أو في الظلام، وما إن يحقق غايته من السرقة حتى ينطلق مسرعًا وهو يتلفت يمينًا ويسارًا خشية أن يراه أحد من الناس. وكل هذه الانفعالات الصادرة عنه في هذا الموقف ناجمة عن إدراكه أن ما يفعله إثم وخطيئة لا تقرها الفطرة ولا يقرها الدين وتأباها العادة السليمة حتى ولو كانت على غير ملة الإسلام، وبالمقابل ترى الإنسان إذا دخل بيته فإنه يدخله أمام الناس، ويحمل الشيء الذي أراده،وهو لا يخشى أن يراه أحد، لإدراكه أن ما يفعله ليس محرمًا ولا معيبًا. وانظر إلى من يحصل على رشوة مثلاً تراه يتلفت حوله يمينًا ويسارًا، ويسارع إلى إخفائها، بخلاف من يحصل على مرتبه فإنه يأخذه أمام الناس في

---

[٥٥] الشيخ محمد الغزالي: علل وأدوية، ص٤٨.

www.mtenback.com

اطمئنانٍ وهدوء، وليس من شك في أن الانسجام بين الفطرة والدين القويم أساسه المعرفة اليقينة للنفس البشرية بمنهج الحق والباطل، والحلال والحرام[٥٦].

ومن هذا كله، ندرك أن مقاييس الخير تنسجم معها النفس البشرية، وتحسّ بطبيعتها وراحتها فيه، ومقاييس الشر تضطرب معها النفس البشرية وتحس بالفزع والذعر وهي ترتكبه.

والنفس البشرية تعرف يقينًا هذه المقاييس التي وضعها الله لمنهجه في الكون. والتفسير العميق لمقاييس الخير ومقاييس الشر التي وضعت فينا بالفطرة تتجلّى في الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[٥٧].

وهذا العطاء عطاء ربوبية، ولذلك وجدت هذه المقاييس في البشر كلهم[٥٨].

لكن الإسلام في تعامله مع الإنسان يراعي اعتبارًا مهمًا، وهو طبيعة النفس البشرية للإنسان، وتركيبها من عنصري الأرض والسماء. فهو مع حرصه على الارتفاع بفطرة الإنسان وسعيه إلى السمو بهذه الفطرة وتهذيبها والرقي بها إلى أرقى مدارج الكمال، نراه رحيمًا بالإنسان، فهو لا يحاسبه ولا يؤاخذه إلا بما كسبت يداه، على نحو ما يصرح القرآن بذلك في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[٥٩].

وفي قوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[٦٠].

---

[٥٦] انظر: الشعراوي، الشيخ محمد متولي: الأدلة المادية على وجود الله، ص ٣٦، ٣٧.

[٥٧] سورة الأعراف: ١٧٢.

[٥٨] انظر: الشعراوي: الأدلة المادية على وجود الله، ص٣٨ (بتصرف).

[٥٩] سورة المدثر: ٣٨.

[٦٠] سورة الطور: ٢١.

www.mtenback.com

وهو أيضًا لا يكلف الإنسان إلا بقدر ما يطيق ويحتمل، كما ينص القرآن على ذلك في قوله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[٦١].

وذلك لأن تكليف الإنسان ما ليس في وسعه وتحميله مالا طاقة له به، خروج عن حدود الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها.

ويوضح هذه المسألة تلك المعاناة النفسية التي كان يجدها حنظلة بن الربيع الأسيدي الصحابي الجليل، من تغيّر حاله وسلوكه في حال وجوده بحضرة الرسول ﷺ عن حاله وسلوكه في واقع إحساسه بهذا التباين النفسي، وهو يقول: نافق حنظلة! فلما انتهى إلى النبي ﷺ وأفصح له عن أزمته النفسية هون عليه الرسول وأجابه من منظور الإسلام للفطرة الإنسانية فقال: «يا حنظلة إنكم لو بقيتم على الحال التي تكونون عليها عندي لصافحتكم الملائكة في الطرقات.. ولكن ياحنظلة ساعةً وساعة»[٦٢].

وهكذا يجب أن نقف على المفهوم الحقيقي لها في ضوء مقاييس الإسلام ومعاييره الضابطة لحركة الكون وناموسه، حتى لا نرجو من الإنسان (ملائكيةً) ومثالية هي فوق الطاقة التي فطره الله عليها.

ومع الإيمان بأصالة الفطرة في النفس البشرية، ليس بإمكاننا أن ننكر ما قد يعتورها أحيانًا من انطماس واندحار أو اختفاء. ولذلك أسباب واضحة منها الإحساس بالأمن وطول السلامة، ومنها الغفلة ونسيان الذات وسط مغريات الحياة وتياراتها المتشعبة، ومنها غياب الوازع الديني والأخلاقي كليًا أو جزئيًا ومنها انحراف المجتمع وخضوعه لأعراف وتقاليد بعيدة عن متطلبات الفطرة وعن حاجات المرء الضرورية.

---

[٦١] سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

[٦٢] ابن الأثير، عز الدين الجزري: أسد الغابة في معرفة الصحابة، طبع دار الشعب، مصر، ٢/٦٥.

www.mtenback.com

ولكن لأن الفطرة أصيلة الطبع في الإنسان، وهي وإن غابت أحيانًا، فإنها سرعان ما تفيق وتستيقظ لتؤكد أصالتها في النفس البشرية، وذلك عندما تتعرض هذه النفس لما ينبه فيها أصالة الفطرة، من الأخطار والأزمات والشدائد ومن تجارب الحياة اليومية القادرة على إعاة الجاحد المنكر إلى فطرته وتقويم ما اعوجّ منه.

وهذه الظاهرة النفسية المتصلة بتركيب الإنسان وفطرته يصورها القرآن الكريم في مواضع كثيرة خير تصوير، فيقول مثلاً: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا . أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً. أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾[٦٣].

ويقول في موضع آخر: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[٦٤].

فالمخالفون لله المعرضون عنه إذا انقطع رجاؤهم حين يركبون السفن في البحر، وإذا اشتدت الريح وعَظُم الحرج، وخافوا الغرق، رجعوا إلى الفطرة، فدعوا الله وحده، وتركوا عند ذلك دعاء الأصنام، لأن كل واحد منهم يعلم بالفطرة علمًا لا يقدر على مدافعته أن الأصنام ونحوها لا فعل لها ولا تنفعه في تلك الحال، وأنه لا يكشف هذه الشدة العظيمة النازلة بهم غير الله سبحانه. ولكن الغريب أن هؤلاء بعد إنجاء الله لهم ووصولهم إلى بر الأمان، سرعان ما يعودون إلى ضلالهم وبُعْدهم، ودعاءِ غير الله سبحانه، بالإعراض عن الله وتوحيده،و العودة إلى دعاء أصنامهم، والاستعانة بها، ولا

---

[٦٣] سورة الإسراء: الآية ٦٧-٦٩.

[٦٤] سورة العنكبوت: الآية ٦٥.

www.mtenback.com

عجب في ذلك إذا أدركنا أن الإنسان كثير الكفر والجحود لنعمة الله، كثير المروق والانسلاخ عن طاعته[٦٥].

وهذه الصورة التي يقدمها القرآن الكريم لمخالفة الفطرة بالإعراض عن طاعة الله، هي التي يشير إليها مصطفى صادق الرافعي بقوله: «وإذا ركبك الملحد أيها البحر، فرجفت من تحته،وهدرت عليه وثرت به، وأريته رأي العَين كأنه بين سماءين ستنطبق إحداهما على الأخرى فتقفلان عليه، تركته يتطأطأ ويتواضع، كأنك بهزّه تهزُّ أفكاره معًا، وتدحرجه وتدحرجها، وأطرت كل ما في عقله فيلجأ إلى الله بعقل طفلٍ، وكشفت له عن الحقيقة: إن نسيان الله ليس عمل العقل، ولكنه عمل الغفلة والأمن وطول السلامة»[٦٦].

وبعد فإن الفطرة البشرية هي صبغة في الإنسان وهي هبة فيه فإن هو شاء حافظ عليها نقية صافية طاهرة كَمّا أبدعها الله تعالى فيه،وإن هو شاء شوهها وأفسدها، مخالفًا بذلك ناموس الكون والحياة، وهذا الفعل الإنساني أو ذاك خاضع لسلوك الإنسان، فهو بإمكانه أن يعلو بفطرته، وبإمكانه أن يهبط بهذه الفطرة، فارتقاؤه وهبوطه يكون بحسب قربه أو بعده من المنهج القويم والإيمان الصحيح والعمل الصالح، لأن هذه المؤثرات الثلاثة هي سبيل تنمية الفطرة وتزكيتها واستمرارها. كما يخبرنا النص القرآني بذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا.فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا.وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[٦٧]. وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي

---

[٦٥] الأشقر، محمد سليمان عبد الله: زبدة التفسير من فتح القدير، ط٢، الكويت (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ص٣٧٣، ٣٧٤، وص٥٣٠.

[٦٦] الرافعي، مصطفى صادق: وحي القلم، دار الكتاب العربي، بيروت، ٤٦/١.

[٦٧] سورة الشمس: ٧-١٠.

www.mtenback.com

أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ.إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[٦٨]. وفي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى.وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا.فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى. وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى.فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[٦٩].

فهو يوضح الأساس لسمو الفطرة الإنسانية وارتكاسها، والأسباب المؤدية لهذا السمو أو هذا الارتكاس. فالفطرة ترتكس عندما يتجاوز صاحبها الحق والهدى والصواب. ويؤثر الحياة الدنيا على الآخرة، فيعمل لها وحدها، دون حساب للآخرة. وهنا تختلّ كل الموازين في يد الإنسان، وتختل كل القيم في تقديره، وتختل قواعد الشعور والسلوك في حياته، فالخوف من الله تعالى أو عدمه، ونهي النفس عن الهوى أو عدمه، هو محور الطاعة أو المعصية في حياة الإنسان.

والهوى هو الدافع القوي لكل طغيان وتجاوز ومعصية،وهو أساس البلوى وينبوع الشر، والخوف من الله هو الوازع الواقي أمام نوازع الهوى العاتية وبين الهوى والخوف ينشأ الصراع الإنساني الدائب داخل الإنسانية. وقيمة الإنسان وسط هذا الصراع المتمثل في انتصار إيمانه على هواه وإمساكه بزمام نفسه، وتفوق جانب الإرادة والخوف فيه على جانب الهوى وميل النفس وشهواتها.

وقيمة الإنسان أيضًا تتمثل فيما يتخلل هذا الصراع النفسي المرير من جهاد كبير يكون له أثره في تهذيب النفس البشرية، وتقويمها ورفعها إلى المقام الأسمى، فالنفس الإنسانية تسمو إلى أعلى مقام بهذا النهْي، والجهاد والالتزام، وليس بترك هواها وشهواتها فقط. والحرية الإنسانية اللائقة بتكريم الإنسان هي حرية الانتصار على هوى النفس والانطلاق من أسر الشهوة، والتصرف بها في توازن تثبت معه حرية

---

[٦٨] سورة التين: ٤-٦.

[٦٩] سورة النازعات: ٣٧-٣٨-٤١

www.mtenback.com

الاختيار والتقدير الإنساني. أما الحرية الحيوانية فتتمثل في هزيمة الإنسان أمام هـــواه، وعبوديته وانكساره لشهوته وانفلات الزمام من إرادته وهذه الحرية لا يهتم بهـــا إلا مخلوق مهزوم الإنسانية مستعبد، تلبس عبوديته رداءً زائفًا من الحرية. والأول هو الذي يرتفع ويرتقي ويتهيأ للحياة الرفيعة الطليقة في جنة المأوى، والآخر هو الذي يرتكـــس وينتكس ويحيى الحياة في درك الشهوات حيث تهدر إنسانيته وتفسد فطرتـــه. وهـــذه وتلك هي المصير الطبيعي للارتقاء والارتكاس في ميزان الفطرة البشرية الـــذي يـــزن حقيقة الأشياء[٧٠].

الانحراف عن الفطرة:

مادمنا نعلم أن الفطرة البشرية تسير بانتظام واتساق مع نظام الكون وناموسه، وتتوافق مع دين الله وسننه في هذا الوجود، فيجب أن نعلم أن مجاوزة هذه الفطـــرة والخروج عليها هو خروج على ناموس الكون والوجود، وسبب ذلك ســـوء الفعـــل الإنساني،وغواية الشيطان للإنسان وإساءة استخدامه لما وهبه الله من نعم وفضائل بمـــا يناقض الفطرة السليمة التي فُطر عليها الناس والكون. ولا يخفى ذلك علينا إذا علمنا أن الشيطان قد أخذ العهد على نفسه بغواية الإنسان وإفساد فطرته، وذلك بنص القـــرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَرِيدًا . لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا . وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾[٧١].

---

[٧٠] انظر سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشـــروق بـــيروت، (١٩٨٦م/١٤٠٦هـــ)، م٦، ج٣٠، ص٣٨١٨، ٣٨١٩. (بتصرف).

[٧١] سورة النساء: ١١٧-١١٨-١١٩

www.mtenback.com

ففي الوقت الذي يأمر الله تعالى عباده أن يقيموا وجوههم للدين الحنيف الملائم الفطرة، لا يتوانى الشيطان عن محاولة تغيير هذه الفطرة، بأن يسلك بالإنسان المسالك المنحرفة ويورده موارد التهلكة، ويدعوه إلى ما يخالف فطرته الظاهرة والباقية التي خلق عليها، ويدعوه إلى الشرك بالله بصوره وأشكاله، وإلى اتباع الأحكام والتشريعات المنافية لما أنزل الله تعالى.

والأمر بتغيير خلق الله مقصودٌ به أمره لهم بمخالفة الفطرة الظاهرة والباطنة التي جبل عليها الإنسان وجاء الدين موافقًا لها.

وأمثلة هذه المخالفات للفطرة الظاهرة والباطنة التي يمارسها الشيطان مع الإنسان متنوعة، كإيعازه مثلاً للإنسان بالشرك في عبادة الله من الأوثان والأصنام والأفراد من الإنس، وإيعازه أيضًا للرجال بالتشبه بالنساء وللنساء بالتشبه بالرجال، وتزيينه للمرأة الاحتيال في إبراز زينتها وخلعها من الأدب والاحتشام الذي أمرت به الفطرة.

وموقف الشيطان وأعوانه من فطرة الإنسان هو محاولة مسخها، وذلك بتوجيهها الوجهة المنحرفة المناقضة لما أمر الله به وبعث عليه رسله الكرام، فهو مثلاً يستغل حُبّ الإنسان للتقليد ووفاءه للآباء والأجداد، فيغريه بالتمسك بالقديم والموروث، والتشبث بالعادات والمألوفات المنحرفة ورفض كل جديد، ولو كان هذا الجديد حقًا صحيحًا. مثال ذلك ما كان من كعب بن زهير عندما علم بإسلام أخيه بجير بن زهير، فقد بعث إليه برسالة يعاتبه فيها على تخليه عن دين آبائه وأجداده قائلاً[٧٢]:

أَلاَ أَبْلِغَا عَنِّي بُجَيْرًا رِسَالَةً ... فَهَلْ لَكَ فِيْمَا قُلْتُ - بالخيفِ هَلْ لَكَا

[٧٢] الأصفهاني: الأغاني، ١٤٢/١٥.

www.mtenback.com

سَقَاك أَبُوبكر بكَأْسٍ رَوِيَّةٍ فَأَنْهَلَكَ المأْمُونُ مِنْهَا وَعَلَّكَا
وَخَالَفْتَ أَسْبَابَ الْهُدَى وَتَبِعْتَهُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ وَيْبَ غَيْرِكَ دَلَّكَا[٧٣]
عَلَى خُلُقٍ لَمْ تُلْفِ أُمًّا وَلاَ أَبًا عَلَيْهِ وَلَمْ تُدْرِكْ عَلَيْهِ أَخًا لَكَا

وحجة كعب وأمثاله من المخالفين المعارضين للجديد، أنهم ألْفَوا آباءهم على ما عهدوه منهم، وأنهم لا يستطيعون مخالفة نهجهم كما جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ. فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾[٧٤]. وفي قوله تعالى: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ. بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ. وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ. قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[٧٥].

ومن مظاهر الخروج عن الفطرة الإنسانية السليمة: استغلال الشيطان لبعض الغرائز الطبيعية في نفس الإنسان كحبه للوطن وحب المال والزوج والولد، وحبه للحياة والبقاء. إذ يجعل من هذه الغرائز الطبيعية وسائل مُعَطّلة لا وسائل فاعلة، يعوق بها توجه الإنسان إلى ربه بالدعوة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بدعوى الخشية والألم على فراق هذه المحبوبات. فإذا أصبح حب هذه الأشياء مدعاة للعبودية لها، والتضحية بالدين في سبيلها فهذا ضرب من الوثنية.

---

(٧٣) ويب غيرك: هلكت هلاك غيرك.

(٧٤) سورة الصافات: ٦٩-٧٠.

(٧٥) سورة الزخرف: ٢١-٢٢-٢٤.

www.mtenback.com

كذلك فإن من مظاهر مخالفة الفطرة الإنسانية السليمة: استغلال شياطين الإنس المعاصرين للعلاقة الطبيعية بين الرجل والمرأة استغلالاً مدمرًا لغايتها، بتهييج الغريزة الجنسية وإثارتها بوسائل وطرق متباينة: مثل المسلسلات الإذاعية والتلفزيونية الهابطة، والصور الملونة المثيرة، والمجلات الفاضحة في الفنون والسينما والأزياء والرياضة وغيرها، والأغاني التي تخاطب في الإنسان أحط ما فيه، والقصص والروايات الغرامية المرذولة،والأفلام التي تصنع خصيصًا لتدمير المجتمعات من داخلها حتى تضعف قواها الإيمانية وعندئذ يمكن السيطرة عليها بسهولة.

وكل هذه الوسائل والحيل الشيطانية المعاصرة أشد وباءً وفتكًا من الأمراض والآفات هذا فضلاً عما يمطرنا به الفكر الحديث من آن لآخر من أفكار وآراء هدامة للفطرة الإنسانية، والترويج لذلك كله تحت مسميات التطور والتحرر والانفتاح وغير ذلك من حِيَل الشيطان المعاصر لمسخ الفطرة السليمة في الإنسان لتغيير خلق الله.

كما أن من مخالفة الفطرة قهر النفس وإذلالها، وحرمانها الدائم من المتع والملذات المباحة بحجة التزهد والتقشُّف والتشبه بحال أهل الصلاح كما يُزعم، والانقطاع عن الحياة وأسبابها إلى التنسّك والتجرد من الأشغال والأعمال. وما علم هؤلاء المنقطعون لهذا الأسلوب من الحياة أنه مخالف لسنة الله في حركة الكون ولمسؤولية الاستخلاف في الأرض المنوطة بالإنسان ومطالبته له بعمارة الكون، واستنهاضه للعمل وبناء الحياة واستجلاب الخير لنفسه ومجتمعه وأمته. وقد استرعت هذه الظاهرة السلبية في حياة بعض الناس نظر الإمام ابن الجوزي في عصره، فخطّأها واعتبرها وافدة دخيلة على ديننا وحياتنا العربية والإسلامية، يقول ابن الجوزي: «بلغني عن بعض زهاد زماننا أنه قدم إليه طعام فقال: لا آكل، فقيل له: لم؟ قال: لأن نفسي تشتهيه،وأنا منذ سنين ما بلّغتُ نفسي ما تشتهي، فقلت: لقد خَفِيَتْ طريق الصواب عن هذا من وجهين: وسبب خفائها عدم العلم، أما الوجه الأول: فإن النبي ﷺ لم يكن

www.mtenback.com

على هذا ولا أصحابه،وقد كان عليه الصلاة والسلام يأكل لحم الدجاج ويحب الحلوى والعسل. ودخل فَرْقَدُ السَّبْخيّ على الحسن وهو يأكل الفالوذج فقال: يا فرقد ما تقول في هذا؟ فقال: لا آكله ولا أحب من أكله، فقال الحسن: لعاب النحل بلباب البر، مع سمن البقر، هل يعيبه مسلم؟ وجاء رجل إلى الحسن فقال إن لي جاراً لا يأكل الفالوذج، فقال: و لم؟ قال: يقول لا أؤدي شكره، فقال: إن جارك جاهل،وهل يؤدي شكر الماء البارد؟ وكان سفيان الثوري يحمل في سفره الفالوذج واللحم المشوي، ويقول: إن الدابة إذا أحسن إليها عملت. وما حدث من الزهاد ومن بعدهم من أمور هذا الفتن مسروقة من الرهبانية[٧٦].

وإذا كان بعض الناس يجاوز الفطرة عن طريق مغالاته في جانب الروحانية والرهبانية فإن من الناس أيضًا من يجاوزها بإفراطه وانغماسه في عالم الماديات. وهذا أمر ملحوظ في عصرنا الحاضر، مع ما هيأته أسباب المدنية والتقنية العصرية المتقدمة من وسائل الإمتاع والرفاهية. وهذا الاتجاه المادي الصرف الذي انزلق إليه أكثر الناس في عالمنا الحديث قد أدى بالإنسان إلى أن يصطدم مع الكون ويصطدم مع فطرته، ممّا ورّثه الشقاءَ والتمزقَ والحيرةَ والقلقَ، وعاش كما تعيش البشرية الضالة النكدة اليوم في عذاب رغم جميع الانتصارات العلمية، وجميع الإمكانات الحضارية المادية التي حققت قفزة نوعية لا مثيل لها في كل تاريخ البشرية، ومع هذه القفزة يجب أن يحافظ الناس علىملامح الفطرة في حياتهم المملوءة بانتصارات العقل البشري وبلوغه أوج التقدم العلمي وتسخيره لخدمة الإنسانية وسعادتها.

فالبشرية اليوم تعاني من الخواء المرير، خواء الروح من الحقيقة التي لا تطيق الفطرةُ الصبر عنها، وهي حقيقة الإيمان حسب المنهج الإلهي الذي ينسق حركتها والكون الذي تعيش فيه. إنها تعاني من الهجير المحرق الذي تعيش فيه بعيداً عن ذلك

---

[٧٦] عبد الرحمن بن الجوزي،: صيد الخاطر، تحقيق: علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي، دمشق، ط٣، ص٨١.

www.mtenback.com

الظل الوارف الندي. ومن الفساد المقلق الذي تتمرغ فيه بعيداً عن ذلك الخط القويم والطريق المأنوس المطروق.

ومن ثم تجد الشقاء والقلق والحيرة والاضطراب، وتحس الخواء والجوع والحرمان، وتهرب من واقعها بالأفيون والحشيش والمسكرات وبالسرعة المجنونة، والمغريات الحمقاء،والشذوذ في الحركة واللبس والطعام! وعلى الرغم من الرخاء المادي والإنتاج الوفير والحياة الميسورة والفراغ الكثير عند كثير من الناس فإنه سرعان ما يتكشف الرخاء المادي والمتاع الحِسّي عن الأمراض العصبية والنفسية والشذوذ والقلق والمرض والجنون والجريمة، وفراغ الحياة من كل تصورٍ كريم!.

إنهم لا يجدون أنفسهم، لأنهم لا يجدون غاية وجودهم الحقيقية، ولا يجدون سعادتهم، لأنهم لا يجدون المنهج الذي ينسق بين حركتهم وحركة الكون، وبين نظامهم وناموس الكون، ولا يجدون طمأنينتهم لأنهم لا يعرفون السبيل إلى ما جبل عليه الإنسان من الفطرة»[٧٧].

الفطرة والبيئة:

خلق الله الكون فأحسن خلقَه وجعله ملكًا للإنسان، وخلق له كل ما يحتاج إليه من أرضٍ وسماء، وبحار وأنهار ورياح وأمطار وشمس وقمر، وخلق الأرض بيئةً نقية، وسخر كل ما فيها من أجل الإنسان، يأكل من ثمارها، ويرتوي بمائها الصافي، ويحيا حياة هادئة آمنة لاتشوبها شائبة، ولا يعكر صفوها شيء، مادام يسير وفق الفطرة السليمة التي خلق عليها،ولكن الإنسان يتدخل بجهله فيها، فيفسد ما صنعه الخالق فيلوث بيئته وينشر فيها الفساد.

---

[٧٧] انظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، (١٩٨٦م/١٤٠٦هـ)، م١، ج٣، ص٤٢٢.

www.mtenback.com

وهذا من سوء استخدام الإنسان لما وهب من نعم و أفضال في هـــذه الحيـــاة الكائنة، وهو ممَّا تشير إليه الآية القرآنية: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾(٧٨). وهذا التلويث والإفساد للبيئة بدأ عندما أوغل الإنسان في رحلة مدنيته، وراح يبحث عن كل وسيلة يرتقي بها سُلم المدنية والحضارة، وهو يجهل الآثار السـيئة التي تحدث من استخدامه الفاسد للطبيعة وخيراتها وكنوزها. وكانت النتيجة الطبيعية أن بيئة الإنسان لم تعد نقية كما خلقها الله، بل تعددت مظاهر التلوث فيها، فشملت المـاء الذي يشربه ملوثًا بسبب الكيماويات التي تلقى في مصارف المياه في الأنهار والبحـار والمحيطات، و الهواء الذي يتنفسه ملوثًا بالغازات والأبخرة ومخلفات الاحتراق.

وهكذا أصبح التلوث البيئي خطرًا داهمًا يواجه الإنسانية كلهـا في عصورنـا الحديثة، ويهدد بقاءها واستمرارها. والعجيب في الأمر أن ذلك كله من صنع الإنسـان نفسه.

ولا يخفى ما للتدخين في العصور الحديثة من إفساد للفطرة، ومن أثر سـيئ في تلويث الهواء، وإضرار بصحة المدخّن، وبالصحة العامة في المجتمعات المعاصرة، فضـلاً عما يؤدي إليه من الإصابة بالسرطان وأمراض الدم والقلب والصدر. ومن ثم كـانت الدعوات المستمرة للعودة إلى الفطرة بمنع التدخين وحظره، بل ومعاقبـة المخـالفين بالعقوبات الرادعة.

ولا ننسى الإشارة إلى ما يخلفه التلوث الإشعاعي في حياتنا المعاصرة من آثـار مدمرة على جميع الكائنات الحية، ومن مشكلات صحية وزراعية. مثال ذلك ما سمعنـا عنه وقرأنا في عام ١٩٨٦م عندما انفجر جزء من المفـاعل النـووي في تشـرنوبيل بأوكرانيا (بالاتحاد السوفيتي سابقًا) فقد انطلقت إشعاعات خطيرة لوثت الغـلاف

(٧٨) سورة الروم: ٤١.

www.mtenback.com

الجوي، ونقلتها الرياح والأمطار إلى دول تبعد آلاف الكيلو مترات عن (تشرنوبيل)، وكان ما كان من الآثار السيئة التي سببها هذا الانفجار في البر والبحر والجو ! رغم ذلك كله لا تزال بعض الدول مصرةً على المضي في إجراء التجارب النووية، واختزان كميات كبيرة من الأسلحة الذرية. إن الإنسان يدمر نفسه بنفسه بمخالفته الفطرة السليمة التي فطره الله عليها منذ البدء.

ولكن صوت الفطرة ما يلبث من وقت لآخر أن يعلو، فتقوم الدعوات المخلصة التي تدعو إلى نقاء البيئة، وتطالب الإنسان بأن يفيق من سباته وغفلته،وأن يحاول جاهدًا تغيير واقعه المرير بالعودة إلى أحضان الطبيعة النقية، والابتعاد عن كل ما يلوث هذه الطبيعة. وما يشهده عالمنا المعاصر من مؤتمرات دولية ودعوات مخلصة للرجوع إلى أحضان الطبيعة لهو دليل قوي على ما أحدثه الإنسان المعاصر من عبثٍ وإفسادٍ وتلويث لعالمه الذي يحيا فيه وتنمو فيه الطبيعة الفطرية من النبات والحيوان والإنسان.

الحضارة الحديثة والفطرة:

لقد صدق الله في قوله: ﴿الم. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾[٧٩]، ولئن كانت هذه الآية نزلت في قوم من المؤمنين استضعفوا بمكة، وقد آنسهم الله بها ووعظهم مخبرًا أن ذلك اختبار ليوطّنوا أنفسهم على الصبر على الأذى، والثبات على الإيمان إلا أن الفتنة لا تزال تعرض للمؤمنين في كل زمان وفي كل مكان، ولكنها تظهر في قوالب مختلفة لتتناسب مع المواقف، ولتكون بحجم المفتونين، وفي المقابل نلحظ بعض الناس ممن تأخذه الصرعة فلا يثبت، وينساق مع الفتنة لضعف الوازع الديني عنده، في حين ترى آخرين يتعايشون مع أحداث العصر، ويديمون النظر

[٧٩] سورة العنكبوت: الآية ١-٢.

www.mtenback.com

فيها، والحذر من سيطرتها، وهؤلاء منهم من ينجو ويخرج من معركة المقاومة ظافرًا ولم تخدعه المغريات، بل تحصن ضد هذه كلها، واستفاد من مقاومتها ونجا من غدر العصر، وعرف أنه في كثير من مظاهر الحياة الحاضرة سرابًا، مخالفًا للفطرة السليمة، ومن هؤلاء من يستسلم أمام تيار العصر الجارف فيغرق في زحامه، ويهرول مبهورًا بشعاعه الزائف، فيكون ضحية سوء تقديره، وعدم قدرته على الثبات أمام الافتتان.

ومع أن الشعر قد صور هذه الحالات، فإنا لا ينبغي أن نسلم بوجهة نظر شاعرية واحدة، ففي الحياة عبر أزمانها الطويلة، متشائمون ومستسلمون، ورومانسيون، وواقعيون وغيرهم، وكل يصور ماهو فيه فليس بالضرورة أن نسلم له بكل شيء، كما لا ينبغي أن ننكر ما هو فيه أيضًا.

فلقد شهدت الحياة المعاصرة انتكاسة أخلاقية أثرت سلبًا على فطرة الإنسان وأهدرت كرامته وإنسانيته، وجعلته محط سخرية وتعجب من حاله الذي غلب عليه الشرُّ والجنون، كما يقول أبو القاسم الشّابيُّ[٨٠]:

أَيُّ نَاسٍ هَـذا الْـوَرَى، مَـا أَرى إِلاَ بَرَايَـا، شَـقِيَّةً مَجْنُونَـهْ
جَبَلَتْهَا الْحَيَاةُ فِي ثَوْرَةِ الْيَأْسِ مِنَ الشَّـرِّ، كَـيْ تُجَـنَّ جُنُونَـهْ
فَأَقَامَتْ لَهُ الْمَعَابِدَ فِي الْكَوْنِ، وَصَلَّتْ لَـهُ وَشَـادَتْ حُصُونَـهْ

لقد تهيأ للشر وجوده وصولاته، وعادت الحياة الحديثة بالإنسان إلى عصور الجاهلية الأولى، تلك العصور التي تؤلّه الزيف وتمجد الغرور والخداع والكذب والقَسْوة كما يقول الشاعر المعاصر[٨١]:

---

[٨٠] أبو القاسم الشابّي: أغاني الحياة، ص١١٩.

[٨١] مجلة الأقلام العراقية، العدد (٢)، عام ١٩٧٢م، ص٢.

www.mtenback.com

هَـــذَا زَمَـــنُ الْقَسْـــوَةِ والْغَـــدْرِ
وَتَـــأْلِيـهِ الـزَّيْـــف
زَمَـــنٌ يُعْطِيْـــكَ النَّـــوْمَ حُبُوبَـــا
مَـــا شِـئْتَ، فَفِـــي السُّـــوْقِ يُبَـــاعْ
كَـــذِبٌ.... كَـــذِبٌ..... وخِـــدَاعْ
جَـــاهِزَةٌ كُـلُّ الأَشْيَـــاءْ
فَـــالمَصْنَعُ يُنْتِـــجُ حَتَّـــى قَلْـــبَ الإِنْسَـــانْ

وبسبب هذا الزيف الغارق فيه عالمنا المعاصر يرى الدكتور عبده بدوي الحياة، وقد بدت شوهاء لا أمل فيها ولا رجاء، بل خوفٌ فارتعاد وعذابٌ ومـــوتٌ لكـــل شـــيء جميل[٨٢]:

مَـــا عَـــادَ شَـــيءٌ يُرْتَجَـــى فَخَلْـــفَ بَابِنَـــا الْغَـــدَرْ
وَالْخَـــوْفُ مِـــلْءُ رُوْحِنَـــا ! وَالْـــبَرْدُ سَـــالَ وانتشَـــرْ
وَالنَّـــاسُ داسُـــوا قُدْسَـــنَا وَعَذَّبُونَـــا بِـــالنَّظَر

ولقد حوّلت الجاهلية المعاصرة الإنسان عن فطرته وطبعه القويم حتى استحال مطبوعًا على الشر، حتى إن الطيور والنجوم والأرواح أصبحت تستعيذ منه ومن شره، في ملحمة فوزي المعلوف (على بساط الريح)، كما استعاذت من شـــره العَرّافـــة في ملحمة (عبقر) لشفيق المعلوف، عندما فوجئت برؤية الإنسان، فثارت حوله مزبـــدةً غضبًا وفزعًا وهي تقول[٨٣]:

---

[٨٢] بدوي، عبده: ديوان لامكان للقمر، الدار القومية للتأليف والترجمة والنشر (١٩٦٦م)، ص١٣٢.

[٨٣] المعلوف، شفيق: عبقر، منشورات العصبة الأندلسية، دار الطباعة والنشر العربية، سان باولو، البرازيل، ط٣، (١٩٤٩م)، ص١٦١.

www.mtenback.com

وَيْحَـــكَ يَـــا إِنْسَـــانْ أَلْـــقِ عَصَـــا سِـــحْرِكْ

وبدأ شفيق معلوف يصور ما آلت إليه طبيعة البشر المعاصرين ومـــا أصـــاب حياتهم من اختلاف في مسلمات الحياة وقوانين العلاقة الاجتماعية المنضبطة بضوابـــط الإنسانية الحرة الكريمة المقبولة.

وقد أصبح تعامل الناس في رأي شفيق تعاملاً سحريًا يبتعد عن حقائق الوجـــود وسلامة النفس، وقد تحول إلى ثعبان يلدغ من استطاع ويختفي إذا لم يستطع حتى يجد الفرصة. وهي صورة فيها الكثير من التشاؤم وسوء الظن إلا أن مدلولها في النهاية هو أن التحول الكبير في سلوك الناس في هذا الزمن كان مزعجًا لطلاب الفضيلـــة فجعلـــوا المبالغة سبيلاً لتجسيم القبح الذي رأوه يلوث ويبتعد بالإنسانية عن فطرتها وكينونتهـــا السمحة اللينة الحسنة.

ومن مظاهر انحطاط الفطرة الإنسانية بتأثير الفعل الإنساني في الحيـــاة الحديثـــة إحساس الإنسان المعاصر الخانق بضياعه الروحي والمعنوي وسط أمواج الحضارة المادية الزائفة، تلك الحضارة التي خلفت وراءها القيم الإنسانية وكذلك إحساســـه القـــاتم بفقدان الطريق الصحيح لنجاته وسط عالم الآليات الخانقة. فهذا هو الشاعر صـــلاح عبد الصبور يختم ديوان (أحلام الفارس القديم) بهذه الصورة المروعة لعالم مات فيـــه الحب، عالم الحقد والدماء، وذلك في حوار بين الشيخ بسَّام والصوفي (بشر الحـــافي) فيقول: «وَنَزَلْنَا نَحْوَ السُّوقِ أَنَا وَالشَّيْخ كَانَ الإِنْسَانُ الأَفْعَى يَجْهَدُ أَنْ يَلْتَـــفَّ عَلَى الإِنْسَانِ الكَرَكِي فَمَشَى مِنْ بَيْنِهِمَا الإِنْسَانُ الثَّعْلَب».

ويقابلنا ذلك الإحساس الخانق بالضياع وفقدان الطريق القويم في العالم الغربي في قصيدة (الطلاسم) لإيليا أبو ماضي حين يقول[٨٤]:

---

[٨٤] أبو ماضي، إيليا: ديوان الجداول، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٢، (١٩٧٨م) ص١٣٩، ١٤٠.

www.mtenback.com

جِئْتُ لاَ أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ. وَلَكِنِّيْ أَتَيْتُ
وَلَقَدْ أَبْصَرْتُ قُدَّامِيْ طَرِيْقًا فَمَشَيْتُ
وَسَأَبْقَى سَائِرًا إِنْ شِئْتُ هَذَا أَمْ أَبَيْتُ
كَيْفَ جِئْتُ؟ كَيْفَ أَبْصَرْتُ طَرِيْقِيْ؟
لَسْتُ أَدْرِيْ...
أَجَدِيْدٌ أَمْ قَدِيمٌ أَنَا فِيْ هَذَا الْوُجُوْدِ

وقصيدة بدر شاكر السياب بعنوان «المومس العمياء»هي صورة من صور انحدار الفطرة الإنسانية وسقوطها في الوحل، ومظهر من مظاهر الإنسانية المعاصرة التي لطخت فطرة الإنسان بالرذيلة، وأهدرت كرامته وإنسانيته بالبغاء السافر، فهو يقول في جزء من هذه القصيدة[٨٥]:

جَيْفٌ تَسَتَّرُ بِالطِّلاءِ، يَكَادُ يُنْكِرُ مَنْ رَآهَا
أَنَّ الطُّفُولَةَ فَجَّرَتْهَا ذَاتَ يَوْمٍ بِالضِّيَاءْ
وَيَكَادُ يُنْكِرُ أَنَّ شِقًّا لاَحَ مِنْ خَلَلِ الطِّلاَءْ
ثَغْرًا يُكَرْكِرُ أَوْ يُثَرْثِرُ بِالأَقَاصِيْصِ الْبَرِيْئَهْ
مَا كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ أَلْفَ فَمٍ كَبِئْرٍ دُونَ مَاءْ
سَتَمُصُّ مِنْ ذَاكَ الْمُحَيَّا كُلَّ مَاءٍ لِلْحَيَاءْ

ولقد استبدت الحضارة الحديثة بالإنسان فقتلت فيه كل شيء جميلٍ، حتى غاص فيه الماءُ والرونق، حتى وجدنا من الشعراء المحدثين من ينعى موت الإنسان قائلاً[٨٦]:

---

[٨٥] السيّاب، بدر شاكر، ديوان السيّاب، دار العودة، بيروت، (١٩٧١م)، ص٥٠٩.

[٨٦] مجلة الآداب، العدد (١٢)، السنة السادسة (١٩٥٨م)، ص٣٠.

www.mtenback.com

وَخَرَجْتُ أُفَتِّشُ ذَاتَ صَبَاحْ
وَبِكَفِّي يُلْمَعُ مِصْبَاحْ
إِنِّي أَبْحَثُ عَنْ إِنْسَانْ
إِنْسَانٍ مَا زَالَ يَعِيْشُ بِهِ الإِنْسَانْ
وَذَهَبْتُ إِلَيْهِ بِكُلِّ مَكَانْ
وَرَجَعْتُ وَلَمْ أَلْمَحْ إِنْسَانْ
قَتَلُوهُ جَبَابِرَةُ الْقَرْنِ العِشْرِيْنْ
اَلسَّفَّاكُونْ.
شَنَقُوهُ أَلْقَوْا جُثَّتَهُ بِالطِّيْنْ
إِنِّيْ أَبْكِيْ مَوْتَ الإِنْسَانْ

وبالطبع لقد أخطأ هؤلاء الشعراء الرومانسيون في تصوير الأمور بهذه الصورة القاتمة المتشائمة. وقد غفلوا عن أن النور قريب موجود لمن يريد الاستضاءة بنور الله والعودة إلى منابع الفطرة الصافية. ولكن الواقع الأليم قد ختم على كثير من القلوب والأسماع والأبصار. إن سبب هذه الصورة الأليمة التي آلت إليها الحياة المعاصرة،وما اعتراها من تزييف واحتضار وفقدان معنى، وإهدار لإنسانية الإنسان وانطماس لفطرته هو أن قسوة الحياة الحديثة هي قسوة مركبة اجتمعت فيها كل خصائص الظلم والبعد عن الفطرة القديمة والمعاصرة، لتعلن موت الإنسان، كما يقول الشاعر محمد الحسناوي[٨٧]:

كَأَنَّ مَجُوسِيَّةَ الغَابِرِيْنَ كَأَنَّ (مَنَاةَ) كَأَنَّ (هُبَلْ)

[٨٧] الحسناوي، محمد: ديوان عودة الغائب، الدار العلمية بيروت، ط١، (١٣٩١هـ/١٩٧٢م)، ص٧٠.

www.mtenback.com

أَفَـاقُوا جَمِيْعًـا بِعَصْـرِ الْفَضَـاءْ ... وَغَـزْوِ السَّـمَاءِ بِـأَبْهَى الْحُلَـلْ
أَمَـا عُبِـدَ الْمَـالُ دُوْنَ الإِلَـهْ ... وَزُيِّـنَ لِلنَّـاسِ طُـولُ الأَمَـلْ
أَمَا حَجَّرَ الْخَـوْفُ دَمْـعَ الْعُيُـونْ ... أَمَا فَجَّـرَ الزَّيْـفُ سَـيْلَ الزَّلَـلْ
أَمَـا كَسَّـرَ الْحَـقُّ مِيْزَانَـهُ ... وَبَـارَتْ تِجَارَتُـهُ، فَـارْتَحَلْ
فَمِـنْ دُوْدَةٍ تَسْـتَبِيْحُ الرَّبِيْـعْ ... وَمِـنْ مُـتْرَفٍ يَزْدَرِيْـهِ الْكَسَـلْ
وَمِنْ لاَهِثٍ فِـي سَـرَابِ الْحَيَـاةْ ... قَدِ اسْتَمْرَأَ الشَّـوْكَ حَتَّـى انْتَعَـلْ
هَوَى أَنْبَـتَ الشَّـرَّ بَيْـنَ الأَنَـامْ ... كَمَا أَشْبَعَ السَّهْلُ وَحْـشَ الْجَبَـلْ
فَفِي الْكَـوْنِ أَوْرَقَ شَـرْعُ الإِخَـاءْ ... وَفِي النَّاسِ أَطْبَـقَ شَـرْعُ الأَسَـلْ

وقد حرصت الحضارة المادية والمعاصرة ودعاتها في كل مكان على التماس كل الحيل والوسائل لتزييف الفطرة الإنسانية وتشويهها. فالمادية قديمًا قد مسخت في الناس فطرتهم وأذواقهم وقيمهم وموازينهم وهي في الحياة الحديثة لم تفعل غير الذي فعلته بالناس في جاهلية العرب وجاهلية الإغريق، وجاهلية الرومان، وجاهلية الفرس، وجاهلية الجاهلين في كل زمان! فالحياة المعاصرة لا همَّ لها إلا أن تعري الناس من اللباس، وتعريهم من التقوى والحياء، ثم تدعو هذا رقيًا وحضارة وتجديدًا.

فالمسخ هو المسخ، والانتكاس عن الفطرة هو الانتكاس،وانقلاب الموازين هو انقلاب الموازين، والتبجّح هو التبجح: «أتواصوا به؟ بل هُمْ قومٌ طاغون!»[88].

وقضية اللباس والحياء والتقوى مثلاً مثال واضح على ما آلت إليه الفطرة الإنسانية من تشويه وإفساد، لأنها مسألة عميقة في الفطرة البشرية فاللباس زينة للإنسان، وستر لعوراته الجسدية كما أن التقوى لباسٌ وستر لعوراته النفسية والفطرة

[88] انظر: سيد قطب: في ظلال القرآن بتصرف، ١٢٨٣/٨

www.mtenback.com

السليمة تنفر من انكشاف سوآتها الجسدية والنفسية،وتحرص على سترها ومواراتها والذين يحاولون تعرية الإنسان جسديًا ونفسيًا من لباسه وتقواه وحيائه ويطلقون ألسنتهم وأقلامهم وأجهزة التوجيه والإعلام كلها لتأصيل هذه المحاولة، في شتى الصور والأساليب الشيطانية الخبيثة، هم الذين يريدون سلب الإنسان خصائص فطرته، وخصائص إنسانيته التي بها صار إنسانًا. ويريدون إسلام الإنسان لعدوّه الشيطان وما يريده به من نزع لباسه وكشف سوآته!... وهم الذين ينفذون المخططات الرهيبة لتدمير الإنسانية وإشاعة الانحلال فيها لتخضع بسهولة لأعدائها، وقد فقدت مقوماتها الإنسانية!... وإن رؤية العُرْي جمالاً هو انتكاس في الذوق البشري قطعًا. وهذا هو الفارق بين الفطرة وبين ما يناقضها ويخالف مرادها فالإسلام حين يدخل بحضارته إلى المناطق المتخلفة في أواسط إفريقية وغيرها من بلاد العالم ينتشل أهل هذه البلاد من التخلف، ويكسو عراتهم وينقلهم إلى مستوى الحضارة بمفهومها الصحيح الذي يستهدف إنقاذ خصائص إنسانيتهم وإبرازها وتقويتها، أما الجاهلية فهي انتكاس وردة إلى الحيوانية، وهبوط بالفطرة الإنسانية والذوق الإنساني السليم. في قصة النشأة الإنسانية في القرآن بيان للقيم والموازين الأصيلة: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ. يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾[٨٩].

لقد جنت حضارة القرن العشرين المادية على الإنسان، فقتلت فيه الفطرة السوية، وغيبتْ فيه الروح والمعنى، وطمست فيه الثقافة والجمال والأخلاق، اغتالت عقله وذوقه، عندما حولته إلى ترس في آلة ليكون عبد الآلة وعندما أخذت هذه

[٨٩] سورة الأعراف: ٢٦-٢٧.

www.mtenback.com

الحضارة على عاتقها فلسفة القوة وسيطرة الأنا وآمنت بقسم البشرية إلى سادة وعبيد. والسبب في هذه الجناية أن هذا التقدم التكنولوجي الذي أحرزته الحضارة الحديثة «لم توجهه قيم الدين يومًا، بل انطلق أساسًا وأخذ طريقه يوم أعلن العلم انتصاره على الدين،ولذا لا نعجب إذا ما تضاءل الإنسان يومًا بعد يومٍ إزاء هذا التضخم الآلي، لأنه فقد الإيمان بكرامته، وغض بصره عن التطلع إلى قيم علوية،وسجد للآلة»[٩٠].

وهذه الفلسفة التي آمن بها صُناع الحضارة المادية الحديثة هي التي نرى ونشاهد تطبيقاتها العملية بجلاء كل يوم وكل لحظة في كل بقعة من بقاع (المعمورة) في (سراييفوا) بالبوسنة والهرسك، وفي (كوسوفا) بيوغسلافيا، وفي أفغانستان، وفي الصومال وفي العراق، وفي ليبيا، وفي دول إفريقية وغيرها من ميادين كثيرة كلها فقدت سلامة الفطرة ونقاء الضمير، فعاد الناس إلى سفك الدماء والانتصار للظلم والعدوان والبغي والحرمان.

ولا شك أن احتكام الحضارة الحديثة إلى عناصر (القوة) و(الأنا) المسيطرة المستبدة وتفريغ الإنسان المعاصر من مقوماته الجمالية والأخلاقية، والتضحية بالعقل الإنساني في سبيل المادة كان فيه أكبر الخطر على الحياة الإنسانية الحديثة، بعد أن أصبح قانون (الغابة) هو القانون المسيطر على تلك الحياة،وبعد أن أصبحت معايير الوثنية القديمة التي تعتمد على العصبية والقوة وتصنيف البشر إلى سادة وعبيد وأقوياء وضعفاء، هي المعايير الثابتة التي تنتظم حركة العالم الحديث. أليست أخلاقيات عالمنا الحديث المتحضر الآن هي أخلاقيات الشاعر الجاهلي القديم الذي يقول[٩١]:

---

[٩٠] انظر: عماد الدين خليل: (الحضارة الغربية في ساعتها الخامسة والعشرين)، مجلة الوعي، ص٣١.

[٩١] أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي: ديوان الحماسة، مطبعة السعادة، المكتبة الأزهرية، ط٢، (١٣١٣هـ/١٩١٣م)، ١/١٢٩، ١٣٠.

www.mtenback.com

فَمَنْ تَكُنِ الحَضَارةُ أعْجَبَتْهُ ... فأيّ رِجَالِ بَادِيةٍ تَرانَا

وَكُنَّ إذا أغَرْنَ عَلَى جَنَابٍ ... وَأعْوَزَهُنَّ نَهْبٌ حَيْثُ كَانَا

أغَرْنَ مِنَ الضِّبَابِ عَلَى حِلالٍ ... وَضَبَّةَ إنَّهُ مَنْ حَانَ حَانَا

وَأحْيَانًا عَلَى بَكْرٍ أخِينَا ... إذَا مَا لَمْ نَجِدْ إلاَّ أخَانَا

فالمصلحة الخاصة في منظور الحضارة المادية الحديثة هي الهدف الأسمى والغاية القصوى كما كان شأن جاهلية العالم القديم،وفي سبيلها يتساوى القريب والبعيد، العدو والصديق، المهم أن يكون للأنا الضعيفة الهوان والموت. وهذه هي الجناية الحقيقية للحضارة الغربية الحديثة التي اتخذت من الغارة على الفطرة الإنسانية والفتك بأفراد النوع البشرى شعارًا لها كما يقول المفكر الإسلامي الكبير محمد إقبال[٩٢].

الفطرة والعادة:

وبعد.. يقول بعض علماء الأخلاق أن الإنسان كله خير محض بفطرته ويذهب آخرون إلى أنه جميعه شر صرف بغير تربية وعليهما لا لزوم للتربية والتهذيب لأنه إن كان الإنسان خيرًا فلا داعية إلى تخييره. وإن كان شرًا صرفًا فلا نفع في محاولة تطهيره. وبطلانهما ظاهر من نفسه وإلا لما شرعت الشرائع ولما قررت الأحكام ولما ورد التكليف بالأعمال ولما بين الحسن والقبيح ولما جاء الترغيب والترهيب. وحكمة الله أكبر من أن يخصص للجنة قومًا وللنار آخرين ويربط استحقاق الجنة بعمل واستيطان النار بعمل بدون أن يجعل في خلقة الإنسان الأهلية لإحدى الجهتين. وقد دلنا صنع الله في إرسال رسله لهداية خلقه وإبعادهم عن الغواية على أن الإنسان قد يكون ميّالاً للشر

---

[٩٢] الندوي، السيد أبو الحسن على الحسني: روائع إقبال، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت ط٢، (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ص٦٩، ٧٠، ٧١.

www.mtenback.com

ثم يعود فيهون شره أو ينقلب إلى حالة الخيرين، ويؤيد هذا أيضًا المشاهدة والنظر في أحوال الغابرين.

وذهب جماعة إلى أن في الإنسان من يوجد خيّرًا وفيه من يولد شريرًا، وهؤلاء انقسموا إلى من قال بأن الإنسان على ما يوجد وعلى ما يولد ولا يمكن تحويله عما خلق عليه ومن قال بصحة التحويل. والأولون من هذه الجماعة يقال على مذهبهم ما قيل على أصحاب الرأيين الأولين لأنهم في الحقيقة ذاهبون إلى ما ذهبا إليه فلا حاجة معهم إلى التربية والتهذيب. أما القائلون بصحة تحويل الخيّر إلى شرير والشرير إلى خيّر فهم أقرب للصواب لأننا نشاهد بالبداهة الاثنين يولدان من ظهر وبطن واحد وميلهما إلى الخير أو إلى الشر مختلف وأنه بالتربية يخف ضرر الشرير وبالتربية يعرف الخيّر طريق الخير ويزيد فيه، وإن جاء الخير من الشرير جاء بتكلف أو تقليد أو ترغيب أو ترهيب. وإذا جاء الشر من الخير جاء ملطفًا غير مبالغ فيه.

وهناك من يقول بأن الإنسان مجرد في أصل الخلقة عن الأمرين الخير والشر جميعًا وأنه يولد قابلاً لهما على السواء فأي منهما لقيه صادف منه قلبًا خليًا فتمكن منه. فبالتربية يدخل في إحدى الفصيلتين وبها يقع عليه الحكم فيقال خيّر أو شرير. وهذا الرأي هو الصواب ولا حاجة فيه إلى إقامة البرهان، فالوجدان يحسه والطبع يألفه، والذوق يحكم به والعقل يقبله بغاية الارتياح وعليه وحده أو عليه وما قبله اشتغل علماء الأخلاق ببيان الفاضل منها والمفضول والرذيل والمرذول، وبينوا أنواع التربية والتهذيب وأساليب التعلم والتعليم، وأقاموا الحجج والبينات وضربوا الأمثال مفصلات وضمنوها كتبهم وجعلوها هاديًا ومرشدًا للناس [٩٣].

---

[٩٣] ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد: تهذيب الأخلاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) مقدمة كتاب (تهذيب الأخلاق) لابن مسكويه ص ج-د.

www.mtenback.com

وللتربية دور في توجيه الفطرة بحسب ميل المربي فإن أحسن توجيهها غرس فيها عنصر الثبات فأصلها في نفس صاحبها حتى تُرى وكأنها عادة لا فطـــرة فحســـب، والعادة كما يقرر علماء الأخلاق «طبيعة ثانية»، وإذا كانت كذلك فتغييرها وتبديلها من الصعوبة بمكان وليس بمستبعد تعديلها، فالتربويون يحرصون على إرساء الفضائل في نفوس الناشئة بوسائل مختلفة، لينشأوا على المبادئ الصالحة ويعتادوهـــا منـــذ نعومـــة أظفارهم، «فما دخل باللَّبن لم يخرج إلاَّ مع الروح» كما تقول العرب، فكأنما الطفـــل يرضع الخلق الحسن على فطرته النقية فيثبت فيه ويتأصل، ولا يحيد عنه طيلة الحيـــاة، وإن هو نشِّئ على السوء كان من الصعوبة بمكان تخليصه منه، قال الشاعر:

مَا إنْ تَخَلّقْـــتُ إلاَّ شِـــيْمَتِي خُلُقًـــا إنَّ الخَلاَئِـــقَ تَـــأْبى دُوْنَهـــا الخُلُـــقُ

إن التخلق غير الأخلاق، فالثاني متأصل في الذات مطبوع في دمها، لا يتكلفـــه صاحبه، ولا يتصنعه، حتى كأنه شيمة من شيم شخصيته، عرفت به، وأصبح ملازمًـــا لها لا ينفك عنها، أما التخلق فمحاولة المرء التراجع على الطبع إلى ما يناسب الموقـــف من حسن الخلق، والوقوف أمام الانحراف لتعديله في سبيل الاستقامة المطلوبة، لكـــن يبقى صاحبه قلقًا في مواقفه، لا يثبت عليها لمنازعة الطبع ووقوف العادة في مواجهـــة الأخلاق، يقول الشاعر:

كلُّ امْـــرئٍ صَـــائِرٌ يومًـــا لِشِـــيْمَتِهِ وإنْ تَخَلَّـــقَ أَخْلاَقًـــا إلى حِيْـــنِ

وهذا الذي قالت عنه العرب: «العادة أملك بالإنسان من الأدب»[٩٤]، والعادة الحسنة موافقة للفطرة بلا شك، لأن البشر لم يتواطأوا على أن يقولوا للشر خـــيرًا، ولا للقبح حسنًا، ولا للكفر إيمانًا، وإجماعهم على قبول أمر من الأمور هـــو إشـــارة إلى اتِّساقه مع النفس الطاهرة، والفطرة السليمة، مهما اختلفت البيئات، وتباينت الأديـــان.

---

[٩٤] القرطبي، ابن عبد البر: بهجة المجالس وأنس المجالس، تحقيق: مرسي الخـــولي، دار الكتـــب العلميـــة، بيروت، ط٢، (١٤٠٤هـــ/١٩٨٣م)، ج٣، ص١١٣.

www.mtenback.com

والأدب يكتسب في سن الصغر لقربه من الفطرة الصحيحة، فإذا اكتسب ذلك في هذه السن المبكرة كان عادة لا تفارق صاحبها، ومن فقد ذلك في صباه كان من المشقة إكسابه أدبًا - أي أدب - على الكبر، يقول الشاعر[٩٥]:

يُقَوَّمُ مِنْ مَيْلِ الغُلامِ المؤدَّبُ ولا يَنْفَعُ التَّأديبُ والرَّأسُ أَشْيَبُ

ويقول آخر[٩٦]:

قد ينْفَعُ الأَدَبُ الأَحْداثَ في مَهَلٍ ولَيْسَ ينْفَعُ بَعْدَ الكِبْرَةِ الأَدَبُ

إنَّ الغُصُونَ إذا قَوَّمْتَها اعْتَدَلَتْ ولَنْ تَلِينَ إذا قَوَّمْتَها الخُشُبُ

لقد تواطأت الأمم على تقدير بعض القيم، وكان الاتفاق عليها بالفطرة لا بالتعلم والاكتساب، فبر الوالدين مثلاً، وصلة الأرحام، وحسن الخلق قولاً وعملاً، وكل لوازم المروءة وغيرها من خصال الخير التي توافق الفطرة النقية، كل ذلك مما يكون الشخصية المعتدلة المفطورة على النقاء، المشمولة بتمام الخُلق الذي بتمامه تكمل المروءة، وهي كلها تكتسب في الصبا، وقلما اكتسبها المرء كهلاً، قال القريعي: [٩٧]

إذَا المَرْءُ أَعْيَتْهُ المُرُوءَةُ نَاشِئًا فَمَطْلَبُها كَهْلاً عَلَيْهِ شَدِيدُ

وحسبنا قول العرب في ذلك: «اطْبَع الطين ما كان رطبًا، واغْمِز العود ما كان لَدْنًا» وقولهم: «ما أشدّ فِطام الكبير، وأعسر رياضة الهَرِم» وقول الحكماء: «من أدّب ولده صغيرًا سُرَّ به كبيرًا»[٩٨].

---

[٩٥] القرطبي، ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله، مصر (١٣٢٠هـ)، ج ٢، ص ٨٣.

[٩٦] المرجع السابق، ج١، ص ٨٣، وانظر: ابن عبد البر: بهجة المجالس، ج١، ص ١١٣-١١٤.

[٩٧] انظر: ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، شرحه: أحمد أمين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، (١٣٨٤هـ/١٩٦٥م) ج١، ص ٤٣٥.

[٩٨] المصدر السابق نفسه.

www.mtenback.com

والذي ييسر للمرء اكتساب صفات المروءة صغيراً هو قرب تكوينه من الطهر المتصل بالفطرة السليمة، فإذا كبر فقلما تبقى الفطرة نقية من الملوثات، وقلّما يشب المرء دون مؤثرات اجتماعية مشمولة بسلبيات وإيجابيات تفرضها طبيعة الحياة البشرية.

ونظرة إلى خلق النبي ﷺ تجعلنا نصل حقًا إلى أن الآداب كلها موافقة للفطرة، فهو عليه الصلاة والسلام قد أدّبه ربُّه، وحسبك من مؤدّب ومؤدّب، فالباري تبارك وتعالى عليم بما يصلح أحوال الناس، وكيف أن صلاح دنياهم في صلاح مسعاهم، وأن صلاح المسعى في موافقة الفطرة والبعد عما يخالفها، لقد نهاه ربه عن التقتير، ووجّهه لأن يكون إنفاقه وسطًا بين الإسراف والتقتير، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾[٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[١٠٠]، وأوصاه ربه بما تضمن جوامع الكلم إلى جانب مكارم الأخلاق فقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[١٠١]، ففي العفو صلة لمن قطعهُ وصفحٌ عمّن ظلمه، وفي الأمر بالمعروف تقوى الله، وغض الطرف عن المحارم، وصون اللسان عن الكذب، وفي الإعراض عن الجاهلين تنزيه النفس عن مماراة السفيه ومنازعة اللجوج. إلى غير ذلك من الوصايا التي كانت محصلتها شخصية مستقيمة وصفها الله بقوله: ﴿... عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[١٠٢]. ولقد قال النبي ﷺ فيما أدب به أمته من مكارم الأخلاق وجميل

---

[٩٩] سورة الإسراء: ٢٩.

[١٠٠] سورة الفرقان: ٦٧.

[١٠١] سورة الأعراف: ١٩٩.

[١٠٢] سورة التوبة: ١٢٨.

www.mtenback.com

المعاشرة وإصلاح ذات البين، وصلة الأرحام : «أوصاني ربي بتسع، وأنا أوصيكم بها: أوصاني بالإخلاص في السِّر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عمَّن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكرًا، ونطقي ذكرًا، ونظري عبرًا»[١٠٣].

والناظر في هذه الوصايا وما ينجم عنها لا شك يغبط كل من رآه يتصف بها أو بشيء منها، ويتمنى أن يكون له حظ منها إن كانت نفسه تنازعه المروءة وتدعوه إلى الفطرة النقية.

وإن من دلائل قرب المرء من الفطرة الصافية رضا الناس عنه، وحبهم له، وثقتهم فيه، لأن ذلك كله سخره الله له، نتيجة لرضاه عنه، لأنه «إذا أحب الله عبدًا أحبَّه الناس»، قال الشاعر[١٠٤]:

وإذَا أحبَّ اللهُ يَوْمًا عَبْدَهُ ... أَلْقَى عليه مَحَبَّةً في النَّاسِ

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك www.mtenback.com

[١٠٣] ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٢، ص٤١٦-٤١٧.

[١٠٤] انظر: ابن عبد البر: بهجة المجالس، ج٢، ص٦٦٣-٦٦٤.

www.mtenback.com

الفهارس

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآيـــة	رقمها	الصفحة
البقرة	﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا... الآية﴾	٢٧٥	٢٤
	﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا... الآية﴾	٢٨٦	٣٣
آل عمران	﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ... الآية﴾	١٤	٢١، ٢٥
	﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ... الآية﴾	١٤-١٥	٢٦
النساء	﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ... الآية﴾	١	٢٣، ٢٤
	﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِنْ... الآية﴾	١١٨-١١٩	٣٧
	﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ... الآية﴾	١٢٥	٢٩
الأنعام	﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي... الآية﴾	٧٧-٧٩	١٥
الأعراف	﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا... الآية﴾	٢٦-٢٧	٥١
	﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ... الآية﴾	١٧٢	٣٢
	﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ... الآية﴾	١٩٩	٥٧
التوبة	﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ... الآية﴾	٢٤	٢٦
	﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ... الآية﴾	١٢٨	٥٧
الرعد	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ... الآية﴾	٣٨	٢٢
الإسراء	﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا... الآية﴾	٢٩	٥٧
	﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ... الآية﴾	٦٧-٦٩	٣٤
الكهف	﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... الآية﴾	٤٦	٢٦
العنكبوت	﴿الم. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا... الآية﴾	١-٢	٤٤
	﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ... الآية﴾	٦٥	٣٤
الروم	﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا... الآية﴾	٢١	٢٢
	﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ... الآية﴾	٣٠	١٣

www.mtenback.com

السورة	الآيـــة	رقمها	الصفحة
الروم	﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا... الآية﴾	٣٠	٧
	﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا... الآية﴾	٤١	٤٣
الصافات	﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ... الآية﴾	٧٠	٣٩
الزخرف	﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ... الآية﴾	٢٢-٢٥	٣٩
الحجرات	﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ... الآية﴾	٧	٥
الطور	﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ... الآية﴾	٢١	٣٢
المعارج	﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ... الآية﴾	٣٠	٢١
المدثر	﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ... الآية﴾	٣٨	٣٢
النازعات	﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا... الآية﴾	٣٨-٤١	٣٦
الانفطار	﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ... الآية﴾	١	٧
الشمس	﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا... الآية﴾	٧-١٠	٣٥
التين	﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ... الآية﴾	٤-٦	٣٦
الإخلاص	﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ... الآية﴾	١	١٥

موقع الدكتور ... www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحة
«... أنّ النبي ﷺ ليلة أسري به أُتي بإناءين...»	٨
«كل مولود يولد على الفطرة»	٧
«يا حنظلة إنكم لو بقيتم على الحال الذي...»	٣٣

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الأشعار

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
		ـ ب ـ		
يقوم	أشيبُ	ـ	١	٥٦
قد ينفع	الأدب	ـ	٢	٥٦
		ـ ت ـ		
جئت	أتيت	إيليا أبي ماضي	٥	٤٧
وليس	الغلاةِ	ـ	٢	٢٣
		ـ د ـ		
يا لها من	أملودا	أبو القاسم الشابي	٣	١٩
عذبةٌ	الجديدِ	أبو القاسم الشابي	٢	١٨
أتينا	سعدِ	ـ	٢	١٦
وقلت	محمدِ	ـ	١	١٤
أرى	ينفدِ	طرفة بن العبد	١	٩
		ـ ر ـ		
في الذاهبين	بصائرْ	قس بن ساعدة	٤	١٠
ما عاد	الغدرْ	د. عبده بدوي	٣	٤٦
لو كنتَ	الموتورا	ـ	٣	١٦
أيها الشامت	الموفورُ	عدي بن زيد	٢	١٠
أطفالنا	نهرِ	عدنان مردم	٦	١٧
		ـ ز ـ		
أكلت	إعواز	ـ	١	١٦

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
		ـ س ـ		
وإذا أحبَّ	الناس	ـ	١	٥٨
		ـ ع ـ		
أكلت	المجاعَهْ	-	٢	١٦
		ـ ف ـ		
لأمرٍ	حنيفا	كعب بن مالك	١	١٤
		ـ ق ـ		
ما إن	الخلقُ	ـ	١	٥٥
		ـ ك ـ		
ألا أبلغا	هلْ لكا	كعب بن زهير	٤	٣٨
ويحك	سحرك	شفيق معلوف	١	٤٧
		ـ ل ـ		
كأن مجوسيّة	هُبَلْ	محمد الحسناوي	٩	٤٩
سبحوا	هلالِ	-	٤	١٤
		ـ م ـ		
بيت	الأنغامِ	أبو القاسم الشابي	٥	١٨
ومن لم	يظلمِ	زهير بن أبي سلمى	٢	١٠
		ـ ن ـ		
فمن	ترانا	-	٤	٥٣
أي ناسٍ	مجنونَهْ	الشابي	٣	٤٥

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
		ـ هـ ـ		
تصبّرْ	المهامه	أبو العتاهية	٤	٢٩
		ـ و ـ		
وينشأ	أبوه	ـ	٢	٢٢

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الأمثال

المثـــل	الصفحة
«إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاء»	١١
«اطبع الطين ما كان رطبا. واغمز العود ما كان لدناً»	٥٦
«حافظ على الصديق ولو في الحريق»	١١
«الحر حر وإن مسه الضر»	١١
«رب أخٍ لك لم تلده أمك»	١١
«رب قول أنفذ من صولٍ»	١١
«رب كلام ليس فيه اكتتام»	١١
«لا تطمع في كل ما تسمع»	١١
«لا جماعة لمن اختلف»	١١
«ما أشد فطام الكبير وأعسر رياضة الهرم»	٥٦
«من أدب ولده صغيراً سُرَّ به كبيراً»	٥٦
«وليس من العدل سرعة العذل»	١١

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

المصادر والمراجع

ابن الأثير الجزري، عز الدين:

أسد الغابة في معرفة الصحابة، طبعة دار الشعب، مصر.

إسماعيل، عز الدين:

المكونات الأولى للثقافة العربية، وزارة الإعلام، بغداد، سلسلة الكتب الحديثة، رقم ٤٥، ١٩٧٢.

الأشقر، محمد سليمان عبد الله:

زبدة التفسير من فتح التقدير، الكويت، ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م

الأصبهاني، أحمد بن عبد الله:

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مصر.

الأصفهاني، أبو الفرج:

الأغاني، طبعة دار الكتب.

البحتري، أبو عبادة الوليد بن عبد الله:

حماسة البحتري، تحقيق لويس شيخو المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٠م.

البخاري ، محمد بن إسماعيل:

صحيح البخاري مطابع الشعب، القاهرة، ١٣٧٨هـ.

البدوي، السيد أبو الحسن علي الحسيني:

روائع إقبال، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

www.mtenback.com

بدوي، عبده:

ديوان لا مكان للقمر، الدار القومية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٦م.

بروكلمان، كارل:

تاريخ الأدب العربي، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجـــار، طبعـــة دار المعارف، مصر، ١٩٦٠م.

أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي:

ديوان الحماسة، مطبعة السعادة، المكتبـــة الزهريـــة، الطبعـــة الثانيـــة، ١٣٣٠هـــ/١٩١٣م.

التوحيدي، أبو حيان:

الإمتاع والمؤانسة، تصحيح وضبط وشرح أحمد أمين وأحمـــد الزيـــن، الطبعة الثانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

الجاحظ، عمرو بن بحر:

البيان والتبيين، تحقيق وتقديم فوزي عطوي، مكتبة الطـــلاب وشـــركة الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٨م.

الجبوري، يحيى:

الشعر الجاهلي وخصائصه الفنية، الطبعة الخامسة، مؤسســـة الرســـالة، بيروت، ١٤٠٧هـــ/١٩٨٦م.

ابن الجوزي، عبد الرحمن:

صيد الخاطر، تحقيق علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي، دمشق، ط٣.

حسن، حسن إبراهيم:

تاريخ الإسلام السياسي، الطبعة الخامسة، طبعة النهضة، ١٩٥٩م.

www.mtenback.com

الحسناوي، محمد:

ديوان عودة الغائب، الدار العلمية، بيروت، ط١، ١٣٩١هـ /١٩٧٢م.

خليل، عماد الدين:

مقال «الحضارة الإسلامية »، مجلة الوعي الإسلامي، السنة العاشرة، العدد (١١٨)، الكويت، غرة شوال ١٣٩٤هـ/أكتوبر ١٩٧٤م.

الخولي، البهي:

مقال «الفطرة والكون » مجلة الوعي الإسلامي، السنة السادسة، العدد (٧٠)، الكويت، شوال ١٣٩٠هـ/٢٩نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٠.

دائرة المعارف الإسلامية:

المجلد الثامن مادة (حنيف).

الرافعي، مصطفى صادق:

وحي القلم، دار الكتاب العربي، بيروت.

الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسيني:

تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: د. حسن نصار، راجعه عبد الستار أحمد فرج، مطبعة حكومة الكويت، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

الزوزني، الإمام أبو عبد الله الحسين بن أحمد:

شرح المعلقات السبع، طبعة دار القلم، بيروت.

السياب، بدر شاكر:

ديوان السياب، دار العودة، بيروت، لبنان، ١٩٧٢م.

الشابي، أبو القاسم:

ديوان أغاني الحياة، منشورات دار الكتب الشرقية ط١، تونس ١٩٥٥م.

www.mtenback.com

الشرقاوي، عفت محمد:

دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٩م.

الشعراوي، الشيخ محمد متولي:

الأدلة المادية على وجود الله، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، طبعة ١٩٩١/٩٠م.

شيخو، لويس:

شعراء النصرانية، طبعة اليسوعيين، ١٨٩٠م.

صالح، حكمت:

نحو آفاق شعر إسلامي معاصر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

ضيف، شوقي:

العصر الجاهلي الطبعة الحادية عشرة، دار المعارف، ١٩٨٦م.

ابن عبد البر القرطبي النمري:

بهجة المجالس وأنس المجالس، تحقيق: مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

- جامع بيان العلم وفضله، مصر، ١٣٢٠هـ

ابن عبد ربه الأندلسي، أبو عمر أحمد بن محمد:

العقد الفريد، شرحه: أحمد أمين وآخرين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٣، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م.

www.mtenback.com

عبد الرؤوف، عوني:

بدايات الشعر العربي مكتبة الخاشجي، القاهرة، ١٩٧٦م.

عبد الصبور، صلاح:

ديوان أحلام الفارس القديم، دار الآداب، بيروت، ط٢، بيروت، ١٩٦٩م.

أبو العتاهية، أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم:

ديوان أبي العتاهية، دار الكتب العلمية، بيروت.

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله:

جمهرة أمثال العرب ضبط وتنسيق: د. أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

العطار، أنور:

ديوان ظلال الأيام، طبعة البرهاني، دمشق، ١٩٤٨م.

الغزالي، الشيخ محمد:

علل وأدوية، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤.

ابن قتيبة، الدينوري أبو عبد الله محمد بن مسلم:

المعارف، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٠م

قطب، سيد:

- خصائص التصور الإسلامي، ومقوماته، طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٦٢م.

- في ظلال القرآن، الطبعة الشرعية الثانية عشرة،دار الشروق، بيروت ١٩٨٦م/١٤٠٦هـ.

www.mtenback.com

قطب، محمد:

منهج الفن الإسلامي، دار الشروق بيروت.

أبو ماضي، إيليا:

ديوان الجداول، الطبعة الثانية عشرة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٨م.

مجلة الآداب، العدد (١٢)، السنة السادسة ١٩٥٨م.

مجلة، الأقلام العراقية العدد (٢)، عام ١٩٧٢م.

محمود، زكي نجيب:

مقال بعنوان : الفطرة السليمة، مجلة العربي، الكويت، عدد ذي القعدة ١٤٠٠هـ/أكتوبر ١٩٨٠م.

مردم بك، عدنان:

ديوان نفحات شامية مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

المسدي، عبد السلام:

قراءات مع الشابي والمتنبي، والجاحظ وابن خلدون، دار سعاد الصباح، الكويت، ط٤، سنة ١٩٩٣م.

ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد:

تهذيب الأخلاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

المعلوف، شفيق:

عبقر، منشورات العصبة الأندلسية، دار الطباعة والنشر العربية، سان باولو - البرازيل، ط٣، ١٩٤٩م.

www.mtenback.com

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم:

لسان العرب، الطبعة الأولى، المطبعة الميرية ببولاق، مصر، ١٣٠٠هـ.

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد:

مجمع الأمثال ، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦١م.

الندوي، السيد أبو الحسن علي الحسني:

روائع إقبال، دار القلم، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

النيسابوري، مسلم بن الحجاج القشيري:

صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة عيسى الباب الحلبي وشركاه، القاهرة، ط١، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com